جامعة الأزهر
كلية اللغة العربية بإيتاي البارود
المجلة العلمية

صورة الغنى والفقر في كتاب عيون الأخبار لابن قتيبة

دراسة نقدية

إعداد

د/ عصام حمدي عطية ضيف

أستاذ الأدب والنقد المشارك في كلية الآداب جامعة الجوف،
والأستاذ المساعد في كلية اللغة العربية جامعة الأزهر فرع المنوفية

(العدد السابع والثلاثون)
(الإصدار الأول .. فبراير)
(١٤٤٥هـ - ٢٠٢٤م)

علمية - محكمة - ربع سنوية
الترقيم الدولي: ISSN 2535-177X

صورة الغنى والفقر في كتاب عيون الأخبار لابن قتيبة دراسة نقدية

عصام حمدي عطية ضيف.
قسم اللغة العربية، كلية الآداب، جامعة الجوف، المملكة العربية السعودية.
قسم الأدب والنقد، كلية اللغة العربية بالمنوفية، جامعة الأزهر، مصر.
البريد الإلكتروني: esamdeif2023@gmail.com - ehdeif@ju.edu.sa

الملخص:

جاء بحث "صورة الغنى والفقر في كتاب عيون الأخبار لابن قتيبة دراسة نقدية" في مقدمة وتمهيد سبعة مباحث، وخاتمة، ثم فهرس المصادر والمراجع، وفهرس الموضوعات، وقفت في المقدمة مع أسباب اختيار الموضوع، والدراسات السابقة، ومنهج الدراسة، ثم خطة الدراسة، وتناول البحث في التمهيد نظرة الإسلام للغنى والفقر، وحديث ابن قتيبة عن الغنى والفقر، ثم أهم كتب الأدب التي تحدثت عن هذا الباب، وجاءت الدراسة في سبعة مباحث على النحو الآتي: أولًا: الحِكَم. ثانيًا: تجارب اجتماعية. ثالثًا: الموازنة بين الغنى والفقر. رابعًا: ذم الغنى ومدح الفقر. رابعًا: مدح الغنى. خامسًا: ذم الفقر. سادسًا: ذم الفقر. سابعًا: فلسفة. ثم جاءت الخاتمة حاملة أبرز نتائج البحث، إذ عُني الشعراء بالحديث عن الغنى والفقر المجرد دون الحديث عن مظاهر الغنى أو أسبابه، والأمر نفسه مع الفقر دون التجرد للحديث عن أسباب الفقر، كما أبدع الشعراء في أسباب امتداح الفقر إذ عمدوا إلى دعم آرائهم بالحجة والبرهان، واتسمت النماذج التي تخيرها ابن قتيبة لإبراز صورة الغنى والفقر بالتنوع بين الشعر والنثر، كما لم تخل كذلك من إبراز بعض التجارب الاجتماعية الناتجة من كثرة أحاديث الناس عن الأغنياء وأحوالهم، والفقراء وأحوالهم. وقد تباينت رؤى الشعراء والأدباء في الغنى، فمنهم من جعله سببًا في السيادة، ومنهم من رامه طريق السعادة، ومنهم رآه سببًا في دفع أي منقصة قد تلحق صاحبها، ومنهم من أرجع استماع الناس إليه بسب

المال، وهناك من جعل الغنى والفقر مما قسمه الله بين عباده فلا حيلة للغني في غناه ولا للفقير في فقره، ولـكــن أحاظٍ قسّمت وجـدودُ.

الكلمات المفتاحية: الغنى، الفقر، المال، صورة، نقدية، عيون الأخبار.

The image of wealth and poverty in the book ʿUyūn alakhbār by Ibn Qutaybah, a critical study

Essm Hamdy Attia Deif
Department of Arabic Language, College of Arts, Jouf University, Kingdom of Saudi Arabia.
Department of Literature and Criticism, Faculty of Arabic Language, Al-Azhar University, Menoufia Branch.
Email: ehdeif@ju.edu.sa - esamdeif2023@gmail.com

Abstract:
The Image of Wealth and Poverty in the Book of ʿUyūn alakhbār by Ibn Qutaybah, a critical study comprises an introduction and overview of seven sections and a conclusion followed by indexes of references and topics, The introduction focuses on the reasons for choosing the topic, literature review, a type of curriculum, then the study plan. It looks at Islam's view of wealth and poverty, and Ibn Qutaybah's hadith about wealth and poverty, then the most important literature books that talked about this topic, .Moreovere, it sheds light on Islam's view of wealth and poverty, and Ibn Qutaybah's speaking explicitly of wealth and poverty, then the most important literature review books that touched on this this current topic. The study includes seven basic sections. First: Governance. Second: Social experiences. Third: Balancing wealth and poverty. Fourth: condemning wealth and praising poverty. Fourth: Praise of wealth. Fifth: condemning poverty. Sixth: condemning poverty. Seventh: Philosophy. The conclusion includes the most prominent results of the research, as the poets were concerned with reflecting on wealth and poverty in the abstract without talking about the manifestations of wealth or its causes, and the same is true with poverty without reflecting conceptually about the causes of poverty. The poets also excelled in the reasons for praising poverty as they

sought to support their opinions with argument and proof. The models chosen by Ibn Qutaybah to highlight the image of wealth and poverty were characterized by diversity between poetry and prose, and were also not devoid of highlighting some social experiences resulting from people's recurrent conversations about the rich and poor and their conditions. The views of poets and writers on wealth varied. Some of them saw it as a reason for sovereignty, some of them saw it as a path to happiness whereas others saw it as a reason to repel any shortcoming that might befall its owner, some of them attributed people's listening to him to insulting money, and there are those who made wealth and poverty among what God divided between them. To His servants, there is no help for the rich in his wealth, nor for the poor in his poverty, but wealth and existence are divided.

Keywords: Wealth, Poverty, Money, Image, critical, ʿUyūn alakhbār.

المقدمة

الحمد لله، والصلاة والسلام على خير خلق الله، وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

ثم أما بعد...

فإن النفس مجبولة على حب الخير، والمال مما تعلق به النفس، وتصبو للاستكثار منه، وقد عني الشعراء والأدباء بهذا الأمر، وتفاوتت نظراتهم إليه؛ ومن ثم التفت الأدباء إلى آراء الشعراء عن الغنى والفقر، ولعل ابن قتيبة من أوائل الأدباء الذين عُنوا بذلك في كتابه عيون الأخبار، حيث خص له بابًا تحدث فيه عن ذم الغنى ومدح الفقر، كما اهتم كثير من النقاد من بعده بتسطير نظرات الشعراء للغنى والفقر ما بين مادح وقادح.

ولمنزلة المال في النفوس، وتعلقهم به وسعي الناس ليكونوا أغنياء، واستنكافهم الفقر، فقد أولاه الشعراء والأدباء اهتمامًا كبيرًا سواء أكان ذلك في أشعارهم أم في كتابتهم الأدبية؛ ولذا لم يغفل الكتاب عن إفراد باب في مصنفاتهم لطرح رؤى الشعراء ونظراتهم للغنى والفقر، وقد نال هذا الباب مكانة سامقة في نفس ابن قتيبة، حيث خص له بابين، هما: الشرف والسؤدد بالمال، وذم الفقر، والحض على الكسب، وباب: ذم الغنى ومدح الفقر. جنح فيه ابن قتيبة لنقل آراء الشعراء والأدباء في المال والغنى والفقر.

وتتبدى أسباب اختيار الموضوع فيما يحمله المال من مكانة في نفوس الأولين والأخرين، كما جاء حديث ابن قتيبة حاملًا بين أعطافه شيئًا من الإثارة والتساؤل في نفس قارئه، وهو ذم الغنى ومدح الفقر؛ إذ كيف يُذم الغنى ويمدح ما يقابله، ويضاف إلى ذلك تنوع ما طرحه صاحب العيون من نماذج شعرية ونثرية، بل امتد استشهاده لينقل نظرات بعض الصحابة في هذا الباب، ولا يخفى ما تحمله لك النماذج من نظرات تتسم بالحكمة – أحيانا– ورؤى فلسفية، وانفعالات صادقة لأصحابها أحيانا أخرى؛ ومن ثم فإن إشكالية الدراسة قد تولدت

من رحم ما وضعه ابن قتيبة من عناوين لهذا الباب، إذ كيف يذم ابن قتيبة الغنى في باب ويجعله في باب آخر مآل السؤدد والشرف، لتجيب الدراسة عن ذلك من أنه ما ذم الغنى المجرد أو امتدح الفقر المجرد، وإنما ذم الغنى الذي يكون سببًا في كبر صاحبه، أو الذي يكون سببًا في تغير خلق صاحبه.

أما عن الدراسات السابقة فلم تقع عيني على دراسات تحمل مثل هذا العنوان إلا دراسة واحدة، وهي رسالة ماجستير، بعنوان:" ظاهرتا الغنى والفقر في الشعر إلى نهاية الخلافة الراشدة دراسة أدبية نقدية" للباحث أمين زين الدين محمد الشريف، والتي نوقشت في كلية اللغة العربية بالمنوفية عام ٢٠١٣م، ويتبدى من العنوان أن البحث لم يتجاوز نهاية الخلافة الراشدة، وجاءت دراسته على النحو التالي: الفصل الأول: ظاهرة الغنى في الشعر الجاهلي المبحث الأول : طلب الغنى والحرص عليه، ودواعي ذلك لدى: أ- الصعاليك ب- من سواهم. المبحث الثاني: مظاهر الغنى في الشعر الجاهلي: أ – وفرة الخيل والإبل. ب – امتلاك الواحات الخصبة والنخيل. ج – وفرة المال والثراء. الفصل الثاني: ظاهرة الفقر في الشعر الجاهلي. المبحث الأول: مناهضة الفقر والثورة عليه، المبحث الثاني: الفقر بين الامتداح والمذمة الفصل الثالث: ظاهرتا الغنى والفقر في شعر العصر الإسلامي إلى نهاية الخلافة الراشدة. تمهيد: تحول المفهوم الإسلامي لكل من معنى الغنى والفقر. المبحث الأول: تأثر الشعر في هذا العصر بالنظرة الإسلامية ومجالي ذلك: أ- في النظرة الخلقية إلى كليهما. ب- في علاقة الغنى بالفقير المبحث الثاني: شعر الدعوة إلى التزهيد في مظاهر الغنى، ودوافع هذا التزهيد. الفصل الرابع: الدراسة النقدية المبحث الأول: الصورة الفنية وملامحها في الظاهرتين. المبحث الثاني: موازنة بين الشعر الجاهلي والشعر الإسلامي. ولم يتعرض الباحث لشيء من النماذج المذكورة في الباب الذي عقده ابن قتيبة عن الغنى والفقر إلا عبارة واحدة ذكرها ناسبًا إياها لابن قتيبة على الرغم من أن ابن قتيبة لم ينسبها لنفسه وإنما قال قرأت في كتب الهند:

" ليس للهند من خَلَّة يُمدح بها الغني، إلا ذُمّ بها الفقيرُ، فإن كان شجاعًا قيل أهوج، وإن كان فقيرًا قيل بليد، وإن كان لسنا قيل مهذار..." كما أنه ذكرها دون تعليق عليها.

ومن الدراسات التي تناولت الفقر، بحث بعنوان : "الفقر والتمرد في الشعر العباسي إلى نهاية القرن الرابع الهجري" لياسين عايش خليل، مجلة اتحاد الجامعات العربية للآداب المجلد التاسع العدد ٢أ، البحث كما هو لائح من العنوان وقف مع الفقر في الشعر وما يستتبعه من تمرد صاحبه بسب فقره، حيث عني بالشعراء الذين عانوا الحرمان والفقر الشديد؛ ومن ثم قابلوا ظروفهم بالشكوى، ولم يقف الكاتب مع أي نموذج مما ورد في عيون الأخبار، كما أن الكتاب ليس من مصادر بحثه.

ومن الدراسات السابقة كذلك التي تناولت البؤس والحرمان، دراسة الدكتور محمد عبده المشد في بحثه المعنون " شعر البؤس والحرمان محمد فضل إسماعيل نموذجًا "، ويلوح للقارئ من خلال العنوان مدى التباين بين هذه الدراسة ودراسة د. محمد عبد المشد حيث بنى دراسته حول شاعر من شعراء العصر الحديث، كما أقام دراسته عن البؤس والحرمان دون الغنى.

ثم ما جاء من سرد لما قاله الشعراء عن الغنى والفقر في مصنفاتهم كما جاء في عيون الأخبار، وما ورد في عدد من مؤلفات الثعالبي، والإبشيهي.

وقد اعتمدت المنهج الوصفي التحليلي الذي يعتمد دراسة الظاهرة كما توجد في الواقع المعاش، ويُعنى بوصفها وصفًا دقيقًا يساعد في استنطاق الصورة لتحليلها مما يعد مدخلًا للوقوف مع الصور والمشاهد التي يرسمها الشعراء، ثم الحكم عليها جودة أو ضعفًا.

وجاء الحديث عن صورة الغنى والفقر في كتاب عيون الأخبار في مقدمة تناولت فيها أسباب اختيار موضوع البحث، والدراسات السابقة، ثم المنهج الذي درجت عليه، ثم محتويات البحث، أعقبها تمهيد وقفت فيه مع نظرة الإسلام

للغنى والفقر، ثم الغنى والفقر في كتاب العيون، والغنى والفقر في كتب الأدب، جاءت بعد ذلك الدراسة في مبحثين لإبراز رؤى الشعراء والأدباء ونظراتهم إلى الغنى والفقر من خلال ما سطره ابن قتيبة في عيونه، وهي: المبحث الأول، ويعنى بالحديث عن ما قاله الشعراء في هذا الباب، وقد درات نظراتهم بين العناصر الآتية:

- أولًا: الحِكَم.
- ثانيًا: تجارب اجتماعية.
- ثالثًا: الموازنة بين الغنى الفقر.
- رابعًا: ذم الغنى ومدح الفقر.
- خامسًا: مدح الغنى.
- سادسًا: ذم الفقر.
- سابعًا: فلسفة المال وعدمه.

وخُص المبحث الثاني بما قاله الكتاب والأدباء عن الغنى والفقر، وحملت رؤاهم توافقًا كبيرًا بينهم وبين ما رامه الشعراء، ومن ثم خلصت نظراتهم في الحديث عن العناصر الآتية: الحكم، والتجارب الاجتماعية، ووذم الغنى ومدح الفقر.

ثم خاتمة حاملة بين أعطافها أبرز نتائج الدراسة، ففهارس المصادر والمراجع، وبعدها فهرس الموضوعات.

التمهيد

أولاً: نظرة الإسلام إلى الغنى والفقر:

من المسلم به أن النفس جبلت بطبعها على حب المال؛ ومن ثم جاءت تسمية المال بهذا الاسم لأن النفس تميل إليه، وقد جعل الإسلام اليد العليا خيرًا من اليد السفلى تحببيًا في الإنفاق وتبغيضًا في البخل وعدم الإنفاق، كما حث الإسلام في ألا نفتقر إلا إلي الله، قال تعالى: "يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ " [١] وتأتي الحكمة الإلهية في آية أخرى لتبين للناس سر عدم بسط الرزق للعباد؛ وما يستتبع ذلك من طغيانهم، قال تعالى: وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ " [٢] ومن ثم تتجلى الحكمة الإلهية بنا في عدم الطغيان؛ ولذا ينزل الله –عز وجل– ما ينفعنا فهو الخبير البصير بما يصلح به أمرنا، فإن أقبل العبد على كسب المال من الوجوه التي أحلها الله، وابتعد عما حرم، وأدى حق الله عليه فيه، وأنفقه في الوجوه المشروعة، وعف به أهله وعياله؛ فهذا من فضل الله تعالى عليه، وفي الحديث الذي رواه الإمام أحمد" :نِعْمَ الْمَال الصَّالِح للرجل الصَّالِح." [٣]

وقد عُني الإسلام بالمال، واحتفى به، حيث جعله الله مظهرًا من مظاهر امتنانه على عباده، ومن ثم ذلل لهم الحصول عليه، وأودع البركة فيه إن أطاعوه، قال تعالى على لسان نبيه نوح – عَلَيْهِ السَّلَامَ– " :"فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا

---

١ – سورة فاطر، آية رقم ١٥.

٢ – سورة الشورى، آية رقم ٢٧.

٣ – إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري، لأحمد بن محمد بن أبى بكر بن عبد الملك القسطلاني القتيبي المصري، أبو العباس، شهاب الدين (المتوفى: ٩٢٣هـ) ١٤٥/٧، نشر: المطبعة الكبرى الأميرية، مصر، الطبعة: السابعة، ١٣٢٣ هـ.

رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا. يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا. وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا" (١)

كما رغَب الإسلام في كثير من الآيات إلى استثمار المال والتجارة به مع الله، وبيّن أن هذا طريق المؤمنين المؤدي بهم إلى الفوز في الدنيا والفلاح في الآخرة، يقول تعالى:" إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ"(٢)

وإذا كان الإسلام قد حث أبناءه على التكسب من حلال، حتى يُغنى كل مسلم نفسه وعياله عن السؤال، فإنه أمرهم بالإنفاق وعدم البخل، قال تعالى: "وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ"(٣)، وقال أيضًا: وَمَنْ يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَنْ نَفْسِهِ ، وَاللهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ" (٤) ومن ذلك قول النبي – صلى الله عليه وسلم– : " (الْيَدُ الْعُلْيَا خَيْرٌ مِنَ الْيَدِ السُّفْلَى، وَابْدَأْ بِمَنْ تَعُولُ، وَخَيْرُ الصَّدَقَةِ عَنْ ظَهْرِ غِنًى، وَمَنْ يَسْتَعْفِفْ يُعِفَّهُ اللَّهُ، وَمَنْ يَسْتَغْنِ يُغْنِهِ اللَّهُ)" (٥)، ولم يغفل النبي التوصية بترك الرجل ورثته أغنياء، حيث يقول عليه الصلاة والسلام: " ... لأن تترك ورثتك أغنياء خير من أن تتركهم عالة يتكففون الناس" (٦)

---

١ – سورة نوح، الآيات رقم ١٠– ١٢.

٢ – سورة التوبة، آية رقم ١١١.

٣ – سورة الحشر آية رقم ٩.، وسورة التغابن آية رقم ١٦.

٤ – سورة محمد آية ٣٨.

٥ – شرح صحيح البخاري، لابن بطال أبي الحسن علي بن خلف بن عبد الملك (المتوفى: ٤٤٩هـ)، تحقيق: أبو تميم ياسر بن إبراهيم، ٤٢٨/٣، نشر: مكتبة الرشد – السعودية، الرياض، الطبعة: الثانية، ١٤٢٣هـ – ٢٠٠٣م.

٦ – الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لأبي يعلى محمد بن الحسين بن محمد بن خلف الفراء الحنبلي، تحقيق: محمد الأمين مصطفى أبوه الشنقيطي، أستاذ مساعد بكلية الشريعة بالجامعة الإسلامية، ١٥٦، نشر: مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة – المملكة العربية السعودية، الطبعة: (بدون).

وعلى ذلك فقد أمرنا الشارع الحكيم بكسب المال من وجوهه المشروعة، ودفعنا إلى الحفاظ عليه، كما أرشدنا إلى الإنفاق والتصدق وعدم البخل، ورغبنا في أن نترك ورثتنا أغنياء.

ثانيًا: الغنى والفقر في كتاب عيون الأخبار:

يعد كتاب عيون الأخبار لابن قتيبة الدينوري [1] من أبرز المصنفات الأدبية التي سطرتها أنامل الأدباء القدامى، من أمثال محمد بن سلام الجمحي المتوفى٢٣١هـ، وأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ المتوفى ٢٥٥ هـ، ثم يأتي

---

١ – هو: ابْنُ قُتَيْبَةَ أَبُو مُحَمَّدٍ عَبْدُ اللهِ بنُ مُسْلِمٍ الدِّيْنَوَرِيُّ ،العَلاَّمَةُ، الكَبِيْرُ، ذُو الفُنُوْنِ، أَبُو مُحَمَّدٍ، عَبْدُ اللهِ بنُ مُسْلِمِ بنِ قُتَيْبَةَ، نَزَلَ بَغْدَادَ، وَصَنَّفَ وَجَمَعَ، وَبَعُدَ صِيْتُهُ. قَالَ أَبُو بَكْرٍ الخَطِيْبُ: كَانَ ثِقَةً دَيِّناً فَاضِلاً. ولد سنة ٢١٣ هـ في بغداد ونشأ بها تثقف على أهلها، وأخذ العلم عن رجالها، وأقام بالدِّينَور مدة ولايته القضاء فنسب إليها، توفي سنة ٢٧٦ هـ.

ذِكْرُ تَصَانِيْفِهِ: (غَرِيْبُ القُرْآنِ) ، (غَرِيْبُ الحَدِيْثِ) ، كِتَابُ (المعَارِفِ) ، كِتَابُ (مُشْكِلِ القُرْآنِ) ، كِتَابُ (مُشْكِلِ الحَدِيْثِ) ، كِتَابُ (أَدَبِ الكَاتِبِ) ، كِتَابُ (عُيُوْنِ الأَخْبَارِ) ، كِتَابُ (طَبَقَاتِ الشُّعَرَاءِ) ، كِتَابُ (إِصْلاَحِ الغَلَطِ) ، كِتَابُ (الفَرَسِ) ، كِتَابُ (الهَجْو) ، كِتَابُ (المَسَائِلِ) ، كِتَابُ (أَعْلاَمِ النُّبُوَّةِ) ، كِتَابُ (المَيْسِرِ) ، كِتَابُ (الإِبِلِ) ، كِتَابُ (الوَحْشِ) ، كِتَابُ (الرُّؤيَا) ، كِتَابُ (الفِقْهِ) ، كِتَابُ (معَانِي الشِّعْرِ) ، كِتَابُ (جَامِعِ النَّحْوِ) ، كِتَابُ (الصِّيَامِ) ، كِتَابُ (أَدَبِ القَاضِي) ، كِتَابُ (الرَّدِ عَلَى مَنْ يَقُوْلُ بِخَلْقِ القُرْآنِ) ، كِتَابُ (إِعْرَابِ القُرْآنِ) ، كِتَابُ (القِرَاءاتِ) ، كِتَابُ (الأَنوَاءِ) ، كِتَابُ (التَّسْوِيَةِ بَيْنَ العَرَبِ وَالعَجَمِ) ، كِتَابُ (الأَشرِبَةِ (١)).

وَقَدْ وَلِيَ قَضَاءَ الدِّيْنَوَرِ، وَكَانَ رَأْساً فِي عِلْمِ اللِّسَانِ العَرَبِي، وَالأَخْبَارِ، وَأَيَّامِ النَّاسِ. ينظر: سير أعلام النبلاء، لشمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قَايْماز الذهبي (المتوفى : ٧٤٨هـ)، تحقيق: مجموعة من المحققين بإشراف الشيخ شعيب الأرناؤوط،١٣/ ٢٩٦ وما بعدها، نشر: مؤسسة الرسالة، الطبعة: الثالثة ، ١٤٠٥ هـ / ١٩٨٥م. وينظر: عيون الأخبار، قدم هذه الطبعة د. عبدالحكيم راضي، ١/ ١٢، ط: الهيئة العامة لقصور الثقافة، ٢٠٠٣.

من بعدهما ابن قتيبة صاحب العيون، والشعر والشعراء، وأدب الكاتب، المتوفى ٢٧٦ هـ، ثم المبرد صاحب كتاب الكامل في اللغة والأدب، المتوفى ٢٨٥ هـ، ويدخل كتاب عيون الأخبار ومعه المصنفات السابقة ضمن كتب الأدب التي حوت بين جنباتها العديد من الاختيارات الشعرية والنثرية.

ولو رام المطالع كتاب العيون لوجده مقسمًا عشرة كتب، وهي: كتاب السلطان، وكتاب الحرب، وكتاب السؤدد، وكتاب الطبائع والأخلاق المذمومة، وكتاب العلم، وكتاب الزهد، وكتاب الإخوان، وكتاب الحوائج، وكتاب الطعام، وكتاب النساء.

ويأتي حديث ابن قتيبة عن الغنى والفقر في الكتاب الثالث الذي جعل عنوانه: " كتاب السؤدد"، "وقد أسهب فيه المؤلف عن مخايل السؤدد وأسبابه، والتناهي في السؤدد، والسيادة والكمال في الحداثة، والهمة والخطار بالنفس، والشرف والسؤدد بالمال وذم الفقر والحض على الكسب، وذم الغنى ومدح الفقر، والتجارة والبيع والشراء والدين، واختلاف الهمم والشهوات والأماني، والتواضع والكبر والعجب، ومدح الرجل نفسه وغيره، ثم الحياء والعقل والحلم والغضب والعز والذل والهيبة والمروءة، واللباس والتختم والتطيب والمجالس والمحادثة والثقلاء والبناء والمنازل، والمُزاح والرخص فيه، ثم التوسط في الأشياء وما يكره من التقصير فيها، والغلو والتوسط في الدين، وذم فضل الأدب والقول، والتوسط في الجدة والاقتصاد في الإنفاق والإعطاء، وأفعال السادة والأشراف" [١]

وجاء وقفة صاحب العيون عن الغنى والفقر في كتاب السؤدد، وخص له بابين، الأول عن: "الشرف والسُّؤدَد بالمال، وذم الفقر والحض على الكسب"، وعنون للثاني بقوله: "ذم الغنى ومدح الفقر" ويتبدى من العنوان الأول " الشرف

١ – عيون الأخبار ، ١/ ٦–٧.

والسؤدد بالمال، وذم الفقر والحض على الكسب" عدة ملامح يمكن بيانها على النحو الآتي: أولًا: رد الشرف والسؤدد إلى المال؛ وذلك لما له من علوق في النفس، كما أنه قد يكون سببًا في غض الطرف عن كثير من معايب النفوس. ثانيًا: "ذم الفقر"؛ ومرجع ذلك إلى نفور النفس منه. ثالثًا: "الحض على الكسب" ليتآزر مع الشق الأول "الشرف والسؤدد بالمال"، وتحمل كلمة "الحض" تحفيزًا وحثًا للنفس، ثم تأتي كلمة الكسب لتشي بالتعب الحاصل من كسب المال مما يعني أنه حلال. وأما العنوان الثاني فقد جعله مكونًا من محورين، يدور الأول حول ذم ما مدحه قبل ذلك، ويأتي الثاني ليمدح فيه ما ذمه من قبل، وهو "ذم الغنى ومدح الفقر" وكأني بابن قتيبة من خلال هذا العنوان يلقي في نفوس الفقراء هدوءً، إذ استطاع بما انتخبه من قرائح الشعراء والأدباء إبراز مكامن ذم الغنى وما يحدثه في النفس من تكبر، وما يبثه الفقر من توكل على الله وهدوء نفس فليس معه ما يشغل البال؛ ومن ثم فهو ساكن النفس هادئ القلب مطمئن البال.

ثالثًا: الغنى والفقر في كتب الأدب:

من يطالع كتب الأدب يجد غير واحد من أدبائنا سلك مسلك ابن قتيبة في ذمه الغنى ومدحه الفقر، ولعل من أبرزهم الثعالبي حيث طرق هذا الباب في عدد من مصنفاته، وهي: " اللطائف والظرائف" [1]، وجاء حديثه في هذا الكتاب متضمنًا ستة أبواب، هي: "باب مدح المال، وباب ذم المال، وباب مدح الغنى، وباب ذم الغنى ، وباب مدح الفقر ، وباب ذم الفقر". وفي كتاب " خاص الخاص " [2] ولم يقصر الثعالبي حديثه عن مدح الفقر في الكتابين السابقين بل

١ – ينظر: اللطائف والظرائف لعبد الملك بن محمد بن إسماعيل أبو منصور الثعالبي (المتوفى: ٤٢٩هـ)، ٨٩– ٩٢ نشر: دار المناهل.

٢ – ينظر: خاص الخاص لعبد الملك بن محمد بن إسماعيل أبو منصور الثعالبي (المتوفى: ٤٢٩هـ)، تحقيق: حسن الأمين، ٣٥، نشر: دار مكتبة الحياة – بيروت/لبنان.

تعداه إلى اليتيمة حيث خص له فصلًا جعل عنوانه " فصل في مدح الفقر"[١]، ويبدو أن مدح الفقر سار سجية عند الثعالبي، حيث تناوله بالمدح في تمثيله ومحاضرته، عندما وضع له عنوانًا " مدح الفقر" [٢] وكذلك أبو حامد الغزالي في كتابه " إحياء علوم الدين" [٣] وأما الإبشيهي فقد جعل له بابًا في مستطرفه عنونه بـ "ذكر الفقر ومدحه". [٤]

١ – يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر، لعبد الملك بن محمد بن إسماعيل أبو منصور الثعالبي (المتوفى: ٤٢٩هـ)، تحقيق: د. مفيد محمد قمحية، ٢٣٢/٤، نشر: دار الكتب العلمية – بيروت/لبنان، الطبعة: الأولى، ١٤٠٣هـ١٩٨٣م.

٢ – التمثيل والمحاضرة، لعبد الملك بن محمد بن إسماعيل أبو منصور الثعالبي (المتوفى: ٤٢٩هـ)، تحقيق: عبد الفتاح محمد الحلو، ٣٩٤، نشر: الدار العربية للكتاب، الطبعة: الثانية، ١٤٠١ هـ – ١٩٨١م.

٣ – ينظر: إحياء علوم الدين لأبي حامد محمد بن محمد الغزالي الطوسي (المتوفى: ٥٠٥هـ)، ٣/ ٢٦٤ نشر: دار المعرفة – بيروت.

٤ – المستطرف في كل فن مستطرف، لشهاب الدين محمد بن أحمد بن منصور الأبشيهي أبو الفتح (المتوفى: ٨٥٢هـ)، ٢٩٨،نشر: عالم الكتب – بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١٩ هـ.

تقديم

تحمل الصورة بين حناياها دورًا كبيرًا في رسم المشهد الذي يسعى الأديب إلى تشكليه في نفسه أولًا ثم في نفس المتلقي ثانيًا؛ ومن ثم فهي من أهم أدوات التشكيل الفني التي يعتمدها الأديب.

وقد لاقت الصورة الفنية اهتمام المبدعين لما لها من دور مركوز في إعمال العقل والخيال؛ ولذا عُني النقاد بتحديد مفهومها، وبيان أدواتها، ومنزلتها في الارتقاء بالعمل الأدبي، وربما كان الجاحظ من أبرز من فطنوا قيمتها ومنزلتها في الشعر، عندما قال: ": " فإنما الشعر صناعة وضرب من النسج وجنس من التصوير"[1] ويتجلى في كلام الجاحظ قيمة ائتلاف الصناعة مع التصوير لإحداث نسج قوي يسمي الشعر، ومن ثم يكون له أثره في نفس المتلقي.

كما نالت الصورة اهتمام الإمام عبد القاهر الجرجاني مستعينًا برؤية الجاحظ السابقة، واعلمْ أنَّ قولَنا "الصورةُ"، إنما هو تمثيلٌ وقياسٌ لما نَعْلَمه بعقولنا على الذي نرَاه بأبصارنا، فلما رأَيْنا البَيْنونة بين آحادِ الأجناسِ تكونُ مِنْ جِهةَ الصورةِ، فكان تبين إنسانٍ مِنْ إنسانٍ وفرَسٍ من فرسٍ، بخصوصيةٍ تكونُ في صورةِ هذا لا تكونُ في صورةِ ذاك، وكذلك كان الأمرُ في المصنوعاتِ، فكانَ تَبَيُّنُ خاتَمٍ من خاتمٍ وسِوَارٍ من سِوَارٍ بذلك، ثم وجَدْنا بينَ المعنى في أحد البيتين وبينه في الآخر بينونةً في عقولِنا وفَرْقاً، عَبَّرْنا عن ذلك الفرقِ وتلكَ البينونةِ بأَنْ قلْنا: "لِلمعنى في هذا صورةٌ غيرُ صورتهِ في ذلك". وليس العبارة من ذلك بالصورةِ شيئاً نحن ابتدأناه فيُنْكِرَهُ مُنْكِرٌ، بل هو مُستعمَلُ مشهورٌ في كلام

١ – الحيوان، أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، ١٥٩هـ/ ٢٥٥هـ، تحقيق عبد السلام محمد هارون، ٣/ ١٣٢، الناشر دار الجيل، سنة النشر ١٤١٦هـ – ١٩٩٦م، مكان النشر لبنان/ بيروت.

العلماءِ، ويكفيك قول الجاحظ: "وإنما الشعر صياغة وضرب من التصوير" [١] ومن هنا فإن للصورة دورًا مركوزًا في النفس، حيث إن تضمين الكلام للصور والمشاهد التمثيلة يساعد المستمع أو المتلقي في فهم مراد الأديب، كما يرسخ المعنى في النفس، وكأنه لوحة فنية، أو مشهد حركي تمثيلي، ومن ثم تكون آكد في الفهم، وأعمق في النفس.[٢]

١ – دلائل الإعجاز، المؤلف: أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الفارسي الأصل، الجرجاني الدار (المتوفى: ٤٧١هـ)، المحقق: محمود محمد شاكر أبو فهر، ٥٠٨، الناشر: مطبعة المدني بالقاهرة – دار المدني بجدة، الطبعة: الثالثة ١٤١٣هـ – ١٩٩٢م.

٢ – ينظر: صورة القلم في كتاب العقد الفريد لابن عبد ربه دراسة نقدية، عصام حمدي ضيف، ١١٢٦– ١١٢٩، مجلة كلية اللغة العربية جامعة الأزهر فرع بالمنوفية ٢٠٢١م.

المبحث الأول: الشعر

العنصر الأول: الحكم:

جعل الله – عز وجل– المال زينة الحياة الدنيا، وجاء مقرونًا بالبنين بل ومقدمًا عليه، حيث يقول: "الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا" [1] وما ذلك إلا لعلم الله بمدى تعلق النفس بالمال، ومن ثم فإن علاقة النفس بالمال تحتاج إلى حكمة، وقد لاقى هذا الباب مساحة من اهتمام الشعراء ليبرزوا نظراتهم في علاقتهم بالمال، كما أولى ابن قتيبة هذا الجانب اهتمامًا فاق بقية طرحه لرؤى الشعراء والأدباء للمال. وأول كلام صدر به ابن قتيبة بابه الذي عقده في ذم الغنى ومدح الفقر، هو كلام شريح القاضي، حيث يقول: " الجِدَةُ كنيةُ البَهْل"[2] وكأني به بهذا الاستهلال يُصدر حكمًا قضى به قاض، ولا مناقضة لما حكم به والمعنى إن السعة والرفاهية في العيش تسلم صاحبها إلى الضيق والفقر، ومما يقوى حكمه أنه ساق العبارة في صورة الجملة الاسمية التي تفيد الثبوت، مما يعني ثبات الحكم وعدم تغيره، لكن الأمر ليس على إطلاقه إذ السعة والرفاهية في العيش لا يلزم منه أن يكون سببًا في التحول إلى الضيق والفقر، فمن الثابت أن توسعة الرجل على أهل بيته أمر واجب ما دام موسرًا.

---

١ – سورة الكهف آية، ٤٥.

٢ – الجدة: والوُسِعُ، مُثَلَّثَةً: الجِدَةُ، والغِنَى، والرَّفاهِيَةُ، على المَثَلِ، والطَّاقَةُ} كالسَّعَةِ بالفَتْحِ، وقيلَ: هُوَ قَدْرُ جِدَةِ الرَّجُلِ، وقُدْرَةُ ذاتِ اليَدِ، ينظر: تاج العروس من جواهر القاموس، مادة " الواو، والسين، والعين". "قال عَمْرو الشَّيْبَانِيّ البَهْل: "الشَّيْء الْيَسِير الحقير، وَأنْشد: وَذُو اللُّبّ للبَهْل الحقير عَيُوفُ" ينظر: تهذيب اللغة للأزهري. لم أعثر على تلك المقولة إلا في كتاب عيون الأخبار منسوبة لشريح، وهو شريح القاضي في الغالب الأعم."

ومما يدخل في باب الحكمة قول خداش بن زهير: " من الطويل"

أعــاذل، إنّ المــال أعلــم أنّــه ... وجــامعــه للغائلات الغوائل [١]

متى تجعليني فوق نعشك تــعلمي ... أيغني مكاني أبكري وأفائلي؟

يستهل خداش بن زهير بيتيه بهمزة النداء التي للقريب مناديًا على من يوجه له اللوم إزاء جمعه المال ليعلن له أنه يدرك أن المال وجامعه إلى الهلاك لا محالة فلا شيء باق، وجاء حديثه عن المال في جملة مؤكدة بـ "إن" وخبرها جملة " أعلم..." لتحمل دلالة اليقين من الشاعر، وبخاصة بعد أن نادى عليه بهمز النداء التي للقريب وكأني به يريد من هذا العاذل أن يقبل عليه بكل خوالجه فما يخبره به أمر جلل، ويأتي تعبير الشاعر بلفظة الغائلات والغوائل ليبن مدى كثرة المال وشدة بأس جامعه؛ ولذا فلا يقدر عليهما إلا الداهية العظيمة، بل الدواهي العظام، كما يشي قول خداش للغائلات الغوائل بملمح آخر يتمثل في أنه خير رد على العاذل الذي يلومه على قلة المال، ويتآزر ذلك مع ما سطره في البيت الثاني، حيث توجه بالحديث إلى زوجه منبهًا إياها أنها متى ما استدعت مشهد موته قبل موتها، فهل يغني أحد عن مكانه بعد غيابه، سواء أكان ذلك في البكور أم في المساء. ولو أمعنا النظر في بيتي خداش لبدا للناظر أنه استهل البيت الثاني بأداة الاستفهام " متى " لاستحضار صورة الموت، على أنه ختم البيت الثاني باستفهام يحمل معنى التقرير، وكأني به يريد أن يأخذ إقرارًا على أن المال لا يسد مسد من مات.

١ – عيون الأخبار، ١/ ٢٤٨. وينظر: النوادر في اللغة، لأبي زيد الأنصاري تحقيق ودراسة: الدكتور/ محمد عبد القادر أحمد، ٤٤٠، نشر: دار الشروق، الطبعة: الأولى، ١٤٠١ هـ – ١٩٨١ م. ذكر صاحب النوادر البيت الأول فقط.

وقال محمد بن حازم الباهليّ [١]: "من المنسرح"

ما الفقرُ عارٌ ولا الغنى شرفٌ ... ولا سخاءٌ في طاعةٍ سَرَفُ [٢]

ما لك إلّا شيءٌ تقدّمه ... وكلُّ شيءٍ أخّرتَه تَلَفُ

ترككَ مالًا لوارثٍ يتهِ ... نّاه وتَصْلَى بحرِّه أسفُ

ابتدأ محمد بن حازم مقطوعته بإصدار حكمين، هما نفي العار عن الفقر، وعدم ثبوت الشرف للغنى، ولو توقف القارئ عند العبارة الأولى برهة والتي نفى فيها الشاعر العار عن الفقر لكان من المنتظر أن يمتدح الغنى لكن الشاعر اعتنق مذهبًا آخر حول الغنى وهو نفي الشرف عنه، والحكمان كما هو لائح خليا من دليل يشد عضدهما، ويتحول الشاعر بالقارئ في اتجاه آخر وهو السخاء في الطاعة، حيث جعل السخاء في الطاعة ليس من الإسراف في شيء، ويحمل استعمال الشاعر كلمة " سخاء" ملمحًا يشي بأن الأمر محبب لصاحبه، فهو يتلذذ به، حتى وإن أسرف فيه، إذ هو إسراف محمود، ويأتي البيت التالي حاملًا بين أعطافه حقيقة ثابتة لا حياد عنها، ألا وهي لا يبقى للنفس إلا ما قدمت، وما أخرته عن وقته فهو تلف ولا فائدة تعود على صاحبه، وقد ساق الشاعر حديثه عن تلك القضية بتكرار كلمة "شيء" مرتين، الأولى في مقام التقديم والعطاء، والثانية في مقام المنع والتأخير، وتتبدى براعة الشاعر في حسن توظيف كلمة شيء مرتين، جاءت الأولى في سياق النفي والاستثناء، حاملة بين

---

١ – محمد بن حازم الباهلي أبو جعفر مولى باهلة. يقول المقطعات فيحسن، وهو القائل: يا راقد الليل مسروراً بأوله ... إن الحوادث قد يطرقن أسحارا. معجم الشعراء للإمام أبي عبيد الله محمد بن عمران المرزباني (المتوفى : ٣٨٤ هـ) بتصحيح وتعليق: الأستاذ الدكتور: كرنكو ٤٢٩، الناشر : مكتبة القدسي، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان الطبعة : الثانية، ١٤٠٢ هـ – ١٩٨٢ م.

٢ – عيون الأخبار، ١/ ٢٤٦.

حناياها ما يقدمه الواحد منا لنفسه حتى ولو كان قليلًا، وأما الثانية فجاءت في صورة قضية كلية موجبة لإبراز مدى أهمية عدم تأخير الأمر عن وقته المحدد، وأن عواقب التأخير هي التلف. ويواصل الشاعر محمد بن حازم رحلته مع الحِكَم متجاوزًا مرحلة تقديم الشيء في وقته أو تأخيره عن موعده، إلى حكمة أخرى تتعلق بما يتركه المُـوَّرث لوارثِه، إذ ما الفائدة التي تعود على تارك المال لوارثه يتهنا به، بينما هو يتأسف مصطليًا بحر نار هذا المال. وجاء البيت الثالث من هذه المقطوعة مدورًا، حيث انقسمت كلمة " يت هناه " بين شطري البيت، ويحمل التدوير في البيت لمحة تشي بدوران المال وتقلبه من يد إلى أخرى، إذ لا يثبت في يد واحدة، ويتآزر هذا المعنى مع الصورة التي رامها الشاعر حيث يسعى جامع المال ويتعب ليترك ماله لوارثه من بعده، وتأتي كلمة " يتهناه " المدورة لتبرز عدم اكتمال الفرح بالمال الذاهب للوارث فلو بقي وارثه حيًا ما آل إليه شيء وهو كذلك سيترك ما ورثه لمن بعده كما حدث معه، إذن تلك سنة الله في خلقه.

ومما يدخل في هذا الباب قول المَعْلوط السعدي: " من الطويل"

ولا سـوّد المـال الـدّنيّ ولا دنـا ... لذاك ولـكنّ الـكريمَ يسـودُ [1]

متى ما ير النـاسُ الغـنيَّ وجارَه ... فقيرًا يـقـولوا عـاجزٌ وجـليدُ

ولـيس الغنـى والفقـر مـن حيلـة الفـتى ... ولـكـن أحـاظٍ قسّمـت وجـدودُ

فكم قـد رأينـا مـن غـنيّ مـذمّم ... وصُـعلوكِ قـومٍ مـات وهـو حميـدُ

إذا المـرء أعـيتـه المـروءةُ نـاشـئًا ... فمـطلبُـها كهـلًا عـليـه شـديـدُ

ابتدأ المعلوط السعدي حديثه عن المال بعبارة خبرية تكاد تخلو من المؤكدات، وما ذلك إلا لشدة إدراكه أن كلامه يكاد يكون من المسلمات التي لا يشك فيها أحد، فمن المعلوم أن المال لا يسوّد الدني، إنما السيادة للكريم،

١ – عيون الأخبار ١/ ٢٣٦.

وينعرج الشاعر بحديثه نحو الناس مسطرًا رؤيتهم للغني وجاره الفقير، تلك الرؤية التي تنبئ عن نفعية مقيتة، فالفقير عاجز، والغني قوي، ويبدو أن النظرة السابقة لم تَرُق للشاعر ومن ثم شفعها بما يشي بقدر الله في ذلك؛ فلا حيلة للفتى في الغنى أو الفقر، لكنها حظوظ قسمها الله، يتحول الشاعر بعد ذلك لإرسال مجموعة من الحكم لتثبيت رؤيته تجاه الغني والفقير، حيث يستشهد بنموذج من واقع الحياة المعاشة مستعملًا "كم "لإفادة التكثير، وقد الداخلة على الفعل الماضي لتأكد التحقيق، ثم يأتي بالفعل الماضي رأينا مضافًا إلى نون الجمع ليحمل بين أعطافه دلالة تحقق الرؤية البصرية، كل ذلك لتأكيد صورة الغني المذمم، والصعلوك الذي مات ويحمد الناس سيرته، ثم يتعمق في حياة المرء ليبين أن النشأة لها دور مهم في حياة الإنسان، فالمروءة تشب مع الناشئ، ولو لم يترب عليها لأضحى مطلبها دونه خَرْطُ القتاد فتلك صفة لا تكتسب. ولو تأملنا تعبير المعلوط في البيت الأول " سوّد " و" يسود " لبدا للمتأمل المفارقة بين التعبيرين وما بين السياقين من تمايز، حيث جاء التعبير بـ "سوّد" مع صورة عدم كون المال سببًا في السيادة وكأنها لو حدثت فسوف تكون سيادة مرهونة بزمن وجود صاحبها إذ تنتهي بموته أو بانتقالها لغيره، ثم إن التعبير بالمصدر المشدد فعّل يدل على المنازعة الشديدة بين السيادة واستمراها، ويأتي الفعل المضارع مع سيادة الكريم ليبرز للمتلقي تجددها، حيث تتجدد ولا تنقطع بموت صاحبها؛ لأن الكريم يموت ويبقى أثره سراجًا لكل طامح.

ولأن مقطوعة المعلوط انبنت على رؤية تحمل موازنات بين عدة أحوال؛ لذلك كثرت فيها المطابقات من أجل تثبيت الصورة في ذهن القارئ، وقد بدا ذلك جليًا في البيت الأول بين كلمتي " الدني" و "الكريم"، و" الغني" و " الفقير"، و" عاجز" و" جليد"، و" مذمم" و" حميد"، و "ناشئ" و" كهل"

و ويتحفنا ابن قتيبة ببعض النماذج التي لم تنسب، ومنها من "المنسرح" ويحمل ذلك النموذج بين طياته تغيرات الزمن التي لا تثبت على حال واحد أبدًا، وهو:

ولا تهين الفقير علّك أن ... تركع يوما والدهر قد رفعه [١]

يرسم الشاعر في هذا البيت مهيعًا واضحًا للتعامل مع الفقير، حيث نهى عن إهانته، داعمًا طلبه لهذا الأمر بالنظر إلى تقلبات الزمن التي لا يأمنها أحد، فربما تحول من أهان الفقير إلى حال ذليلة بعد أن أدار الدهر له ظهره وذهب ماله، وأصبح الفقير المهان مرفوعًا. ويأتي التعبير بكلمة "تركع" دالة على أن الأمر ليس مقصورًا على ذهاب المال فحسب بل تعداه إلى الذلة مما يدل على أن الغني لم يستطع التجلد أو إخفاء ذلته؛ وتلك إهانة مع ما لحقه من فقدان المال، كما تزداد ذلة منْ تَغَيَّر حاله بعد تَغَيِّر حال الفقير إلى الرفعة، وكأن الأدوار تبدلت.

وقال آخر: " من الكامل"

إنّ الحرام غزيرة حلباته ... ووجدتُ حالبةَ الحلال مَصُورا [٢]

---

١ – جاء البيت برواية " لا تعاد" منسوبا للأضبط بن قريع في كتاب الأضداد لأبي بكر، محمد بن القاسم بن محمد بن بشار بن الحسن بن بيان بن سماعة بن فَروة بن قَطَن بن دعامة الأنباري (المتوفى: ٣٢٨هـ)، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، ٢٩٧ نشر: المكتبة العصرية، بيروت – لبنان، ١٤٠٧ هـ – ١٩٨٧ م.

٢ – عيون الأخبار، ٢٤٨/١. ينظر: جاء البيت منسوبا إلى أبي الزناد في تعليق من أمالي ابن دريد، لأبي بكر محمد بن الحسن بن دريد الأزدي (المتوفى: ٣٢١هـ)، تحقيق: السيد مصطفى السنوسي، مدرس اللغة العربية بجامعة الكويت،١٣٧، نشر: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب بالكويت – قسم التراث العربي، الطبعة: الأولى، ١٤٠١ هـ – ١٩٨٤ م.

يحمل البيت السابق بيانًا للمال الحرام لإبراز تعدد مصادره، في حين تقل مصادر المال الحلال، وقد اعتمد الشاعر في بيان مصدر كل مال على " إن" التي تفيد تأكيد مصدر المال الحرام، على أنه اتكأ مع المال الحلال على لفظة " وجدت" التي تشي بأنه عاين معاينة كاشفة لا شك فيها بل ورأي بنفسه رأي العين مصدر المال الحلال، ويأتي استعمال الشاعر كلمة " حلباته " مجموعة جمع تأنيث لتبرز المشقة التي يلقاها من يبغي المال الحرام على الرغم من كثرة مصادره، فطريقه ليس معبدًا لكل قاصد، كما تشي بتعدد مصادره، في حين لا يأتي المال الحلال إلا من مصدر واحد فقط.

العنصر الثاني: تجارب اجتماعية

يُستعمل المال في الأمور الحياتية كلها، مثل البيع والشراء، أو المقايضة، ولا شك أن الإنسان لا يستطيع الوفاء بمتطلباته الحياتية إلا من خلال المال؛ ومن ثم فهو قوام الحياة، ولا يقتصر المال على العملات الورقية أو المعدنية، إذ قد يكون المال ملبسًا أو مسكنًا أو مركبًا أو دابة أو ما شابه ذلك، ويتعايش الإنسان مع ذلك كله، وتتباين طباع الناس مع المال فبعضهم يجعله في يديه والآخر يجعله في قلبه؛ وشتان ما هما؛ ومن ثم يأتي المال مع اختلاف طبائع الناس حاملًا لنا العديد من التجارب الاجتماعية التي تصور طرائق تعاملهم معه، ووجهات نظرهم فيه، وقد طرح ابن قتيبة العديد من النماذج التي صور فيها تجارب الناس الاجتماعية مع المال، ثم دور المال في السيادة والشرف من عدمهما.

ومن ذلك قول الشاعر: من "المنسرح"

كم من لئيم الجدود سوّده ال ... مـــــــال، أبوه وأمّــه الوَرِقُ [1]

١ – عيون الأخبار، ١/ ٢٤٨.

وكم كريم الجـــــدود ليــس له ... عيبٌ سوى أنّ ثوبه خَلقُ
أدّبـــــه ســادةٌ كــرام فـمــا ... ثوبــاه إلا العفافُ والخُلُقُ

تأتي الأبيات السابقة راسمة بين حناياها بعض ما يحدث في المجتمع مع أصحاب الأموال، فأصحاب الأموال حتى وإن كانوا لئام الجدود فهم سادة بين قومهم، سودهم المال والذهب والفضة، وعلى النقيض من ذلك نجد الكرام أبناء الكرام الذين لا مال لهم يعيبهم الناس لقلة مالهم، على الرغم من أن مؤدبيهم من السادة الكرام، ولا ثوب لهم إلا العفاف وحسن الخلق، وقد اتكأ الشاعر في رسم الصورة الاجتماعية لصاحب المال، وكريمي الجدود على "كم" التي أبرزت معنى الكثرة في الصورتين، مما يشي بأن الصنف الأول من أصحاب المال موجودون بكثرة في المجتمع، والأمر ذاته لذوي النسب الكريم لكن لا مال لهم، كما أفاد استعمال كلمة " لئيم الجدود" التي قابل بها كلمة " كريم الجدود" في تثبيت الصورة في ذهن المتلقي، وذلك ليستحضر القارئ الصورتين؛ ومن ثم يوازن بينهما، ثم يحكم على موازين المجتمع التي تميل كفتها إلى أصحاب الأموال في الغالب الأعم.

وقال آخر: " من الطويل"

إذا المـــرءُ أثرى ثمّ قـــال لقـــومـه ... أنا السيّد المُـقْضي إليه المعظّمُ[1]
ولـم يعطهـم خيـرًا أبـوا أن يسودَهـم ... وهـان علـيهم رغمُـه وهـــو أظلـــمُ

١ – عيون الأخبار، ١/ ٢٤٨، البيتان منسوبان للمغيرة بن حبناء في كتابي المجتنى، لأبي بكر محمد بن الحسن بن دريد الأزدي (المتوفى: ٣٢١هـ)، ٦٣، نشر: دائرة المعارف العثمانية. والأمالي لعبد الرحمن بن إسحاق البغدادي النهاوندي الزجاجي، أبو القاسم (المتوفى: ٣٣٧هـ)، تحقيق: عبد السلام هارون، ٢٦/٢، نشر: دار الجيل بيروت/ الطبعة: الثانية، ١٤٠٧هـ – ١٩٨٧م.

يحمل بيتا المغيرة بن حبناء تجربة اجتماعية في السيادة، حيث ألقى الضوء على الرجل الذي أثرى في قومه بعد أن كان فقيرًا، وما يقوله لهم بعد ذلك الثراء، وكأن الثراء جعله من المعظمين الذين يُقْضَى إليهم، لكنّ ذلك لا يشفع له ما لم يقدم لهم خيرًا؛ وأنى له السيادة، وقد هان عليهم ذله وإصغاره. وتأتي " ثم " العاطفة لتفيد أن المرء فكر وقدر ثم تدبر ما يقوله قبل أن يقوله، وما استتبع ذلك من حكايته عن نفسه بقوله " أنا " دالة على العظمة التي أُصيب بها هذ الرجل، لكنها عظمة خواء فلم يُقَدم ما يجعله عظيما في نفوس الناس، ومن ثم فهو صاغر في نفوسهم، وقد بلغ من جرأة صاحب المال أن تطلع لأن يكون سيدًا يعود إليه الناس وقت خصامهم، لكن أنى له ذلك فأمره ما زال مستقرًا في نفوسهم، فالمعظم من عظمه الناس ولم يطلب هو ذلك، والسيد من سوده الناس دون سعي منه، لكنّ صاحبنا يسعى إلى شيء بعيد بعد المشرقين.

وقال زبّان بن سيّار: من "الطويل"

ولسنا كقومٍ مُحدِثين سيادةٍ ... يُرَى مالُها ولا يُحسُّ فَعَالُها [1]

مساعيهمُ مقصورةٌ في بيوتهِم ... ومَساعاتُنا ذُبيان طرّا عِيالُها

يأتي نموذج زبان بن سيار على النقيض من النموذج الذي سبقه للمغيرة بن حبناء، حيث يفتخر زبان بأنه من طبقة السادة التي يطال خيرها غيرها، ومن ثم فهو ليس ضمن الطبقة الأخرى التي لا يتجاوز خيرهم ديارهم، ويدل قول زبّان على أصالته تجاه قومه، كما أن قومه ممن يقدروا ذلك فيه، فالخير في يده لقومه

١ – عيون الاخبار، ١/ ٢٤٨، ينظر: الوَحشيَّات وهوَ الحمَاسَة الصُّغرى، لحبيب بن أوس بن الحارث الطائي، أبو تمام: الشاعر، الأديب (المتوفى: ٢٣١هـ)، علق عليه وحققه: عبد العزيز الميمني الراجكوتي، وزاد في حواشيه: محمود محمد شاكر، ٣٥٢، نشر: دار المعارف، القاهرة الطبعة: الثالثة.

كلهم، فهم أصل في السيادة وينأون بأنفسهم عن تصرفات مُحْدثي النعمة، فشرفهم وعزهم وسيادتهم تجعلهم في سعي دائم لجلب الخير إلى قومهم.

العنصر الثالث: الموازنة بين الغنى والفقر:

ويواصل ابن قتيبة حديثه عن الغنى والفقر من خلال الموازنة التي عقدها بين حال الغني والفقير وإبراز رأيه في الغنى والفقر متخذا ما اختاره لذلك سبيلًا، وقد رام نموذجًا وازن فيه بين الغنى والفقر، وذلك في بيتين نسبهما لابن مناذر "من الوافر" يقول فيهما: (١)

---

١ – البيتان منسوبان لابن مناذر في عيون الأخبار ٢٤٦/١، وفي طبقات الشعراء، لعبد الله بن محمد ابن المعتز العباسي (المتوفى: ٢٩٦هـ)، تحقيق: عبد الستار أحمد فراج، ١٢٥، الطبعة: الثالثة، نشر: دار المعارف – القاهرة. وفي الدر الفريد وبيت القصيد، ٣٣٣/٦، وفي لسان الميزان المؤلف: أبو الفضل أحمد ابن علي بن محمد بن أحمد بن حجر العسقلاني (المتوفى: ٨٥٢هـ)، المحقق: عبد الفتاح أبو غدة، ٥٢١/٧، الناشر: دار البشائر الإسلامية، الطبعة: الأولى، ٢٠٠٢ م. كما ورد البيت الأول منهما بلا نسبة في الكتب الآتية: التذكرة الحمدونية، المؤلف: محمد بن الحسن بن محمد بن علي بن حمدون، أبو المعالي، بهاء الدين البغدادي (المتوفى: ٥٦٢هـ)، ١١١/٨، الناشر: دار صادر، بيروت الطبعة: الأولى، ١٤١٧ هـ. ربيع الأبرار ونصوص الأخيار، ٩٥/٥.

وقد ورد البيتان منسوبان للإمام علي بن أبي طالب –رضي الله عنه، وكرم الله وجهه– برواية أخرى:

رضينا قسمة الجبار فينا لنا علم وللجهال مال

فإن المال يفنى عن قريب وإن العلم باقٍ لا يزال

ديوان أمير المؤمنين الإمام علي رضي الله عنه وكرم الله وجهه، جمع وترتيب عبدالعزيز الكرم، ٧٥، طبعة مصححة ومنقحة على الرواية الصحيحة، الطبعة الأولى ١٤٠٩ هـ – ١٩٨٨ م. وقد ورد البيتان بالرواية الواردة في ديوان الغمام علي بلا نسبة لكنهما سبقا بعبارة "ومما ينسب لبعض الأكابر:" ينظر: فصل الخطاب في شرح (مسائل الجاهلية، التي خالف فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم أهل الجاهلية لمحمد بن عبد الوهاب =

رضينا قسمة الرحمن فينا ... لنا علمٌ وللثّقفيّ مالُ

وما الثّقفيّ إن جادت كُساه ... وراعك شخصه إلّا خيالُ

ابتدأ ابن مناذر بيتيه معلنًا رضاه بما قسمه الرحمن فيهم؛ وكأنه بهذا الاستهلال يحاول طرد ما يعلق في نفس القارئ من شكوك حول الرضا وعدمه مكتفيا بالشطر الأول في إثبات قضية الرضا، وتتبدى براعة الشاعر في استعمال كلمة " قسمة " تلك اللفظة التي حملت أكثر من دلالة، تمثلت الأولى في نسبتها إلى الرحمن مما يعنى أن البشر لا دور لهم في هذا الحظ وتلك القسمة، وأما الثانية فتتجلى في وجود طرف ثانٍ في هذه القسمة، ولو لم يكن الأمر كذلك لكان من الممكن استعمال كلمة قدرة، ولا يخفى ما يحمله الشطر الأول من إثارة وتشويق في نفس المستمع منتظرًا بيانًا لهذه القسمة، ولم ينتظر الشاعر طويلًا بل جاء بما قسمه الرحمن في الشطر الثاني من البيت الأول ولو تمعنا الترتيب الذي جاء به ابن مناذر لتبدى للقارئ مدى دقته وبراعته، إذ ابتدأ بحظه أولًا من القسمة، ثم ثنى بحظ الثقفي، ولعل من المسلم به أن النفس تتشوف إلى معرفة حظ ابن مناذر أولًا، وبخاصة بعد الإثارة التي أحدثها الشطر الأول، ولو اكتفى ابن مناذر بهذا البيت الذي أعلن فيه ثلاثة أشياء لما شفى غلة القارئ إذ ما المغمز في اختصاص الواحد منا بالعلم واختصاص غيره بالمال ثم الرضا بذلك، لكنه أماط اللثام في البيت التالي عن السر المكنون، وهو أن الثقفي مهما جاد، حتى ولو راعك شخصه فهو خيال في نهاية الأمر، إذ هو كالظل الذي لا يستقر وسرعان ما يزول ولا أثر له، ثم إن تعبيره عن ما يجود به الثقفي بطريق النفي

=

رحمه الله) المؤلف: محمود شكري بن عبد الله بن محمد بن أبي الثناء الألوسي (المتوفى: ١٣٤٢هـ) تقديم وتعليق: علي بن مصطفى مخلوف،٣١، الطبعة: الأولى، ١٤٢٢هـ.

الاستثناء يحمل استقرار الصفة وثباتها وكأنها لا تنفك عنه، فهما جادت كساه، وراع الناظر منظره فهو خيال.

وقال محمود الورّاق موازنا بين الفقر والغنى: من "السريع"

يا عائبَ الفقرِ ألا تزدجر ... عيب الغنى أكثرُ لو تعتبر [١]

من شَرَفِ الفقر ومن فضْله ... على الغنى إن صحّ منك النظر

إنك تعصي الله تبغي الغنى ... ولست تعصي الله كي تفتقر

خص الشاعر محمود الوراق عائب الفقر بهذه الأبيات، مستفتحًا إياها بالنداء للفت نظر كل من عاب الفقر، وحتى يقبل عليه بكل جوارحه، ثم يأتي حواره مه العائب بقوله "ألا تزدجر" ليثير في نفسه الخوف والهلع من عظم اعتقاده، تلك مقدمتان مهد بهما محمود الوراق قبل أن يبدأ في التأسيس لأسباب تفضيل الفقر على الغني، إذ جعل لكل من الفقر والغنى عيوبًا غير أن عيوب الغنى أكثر فهل من معتبر؟ وقد جعل الحديث ينصب على شرف الفقر وفضله، ولم يتطرق للحديث عن هاتين الخصلتين في الغنى، ليجعل العين ملتصقة بما للفقر من شرف وفضل وليصرف النظر عما للغنى من فضل أو شرف، وتأتي كاف الخطاب في قوله " منك"، و"إنك" لتحمل بين جوانحها محاورة مباشرة مع عائب الفقر، ثم يعقد موازنة بين طالب الغنى وطالب الفقر، حيث إن طالب الغنى أكثر عرضة لعصيان الله من طالب الفقر.

والأبيات مأخوذة من نصيحة سيدنا عمر بن الخطاب التي يقول فيها: " وَرُوِيَ عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ – أَنَّهُ قَالَ: مِنْ ثُبْلِ الْفَقْرِ أَنَّك لَا تَجِدُ أَحَدًا يَعْصِي اللَّهَ لِيَفْتَقِرَ". [٢]

---

١ – عيون الأخبار ١/ ٢٤٩.

٢ – أدب الدنيا والدين لأبي الحسن علي بن محمد بن محمد بن حبيب البصري البغدادي، الشهير بالماوردي (المتوفى: ٤٥٠هـ) ٢١٧، نشر: دار مكتبة الحياة ١٩٨٦م.

إلا أن هناك تمايزًا بين كلام سيدنا عمر وشعر محمود الوراق، فلم يذم سيدنا عمر –رضي الله عنه– الغنى ليمتدح الفقر، في حين ذم الوراق الغنى ليمدح الفقر، فليس شرطًا أن يعصي العبد ربه ليصبح غنيًا، وكذلك ليس من اللازم صلاح الفقير لفقره، ومما يدعم ذلك أن ابن عبد ربه ذكر أبيات الوراق وعنون لها بقوله: " وقال محمود الوراق في تحسين القبيح " [1] ويأتي صنيع ابن عبد ربه مع أبيات الوراق ليحمل رسالة مفادها أن الفقر في أصله قبيح مذموم، ولا يمتدح إلا في حالات قليلة فيما لو كان الغنى سببًا في معصية الله، ومن هنا فالفقير الطائع أحب إلى الله من الغني العاصي، والغني الطائع أحب إلى الله من الفقير الطائع.

وقال ذو الإصبع: "من البسيط":

لي ابن عمّ على ما كان من خلق ... مخـــالــف لـي أقْلـيه ويَقْليني

أزرى بنــا أننــا شـالـت نعـامتنـا ... فخالني دونه بل خلته دوني [2]

يستشهد ابن قتيبة ببيتين من قصيدة طويلة لذي الإصبع العَدْواني يوازن بينه وبين ابن عم له، استهل البيتين بالجار والمجرور لإفادة الاختصاص، ثم يوضح أسباب المفارقة بينهما، فلكل واحد منهما خلق يخالف الآخر، ولعل ذلك هو سر ما بينهما من خصام، وما يستتبع ذلك من تفرق كلمتهم، ومن ثم يظن كل واحد منهما أن الآخر دونه، وما ذلك إلا لأن كل واحد منهما يظن أنه على صواب والآخر هو المخطئ. وقد اتسمت عاطفة ذي الإصبع بالحيادية والموضوعية، فلم يجنح إلى نفسه ليعلي من شأنه على حساب ابن عمه، بل كأنه

---

١ – العقد الفريد لأبي عمر، شهاب الدين أحمد بن محمد بن عبد ربه ابن حبيب ابن حدير بن سالم المعروف بابن عبد ربه الأندلسي (المتوفى: ٣٢٨هـ) ١٨٥/٦، نشر: دار الكتب العلمية – بيروت الطبعة: الأولى، ١٤٠٤ هـ.

٢ – أورد ابن عبد ربه البيتين في العقد الفريد في باب: محاسدة الأقارب، ١٧٧/٢.

استدعى قول القائل: رأيي صواب يحتمل الخطأ، ورأي غيري خطأ يحتمل الصواب.

العنصر الرابع: ذم الغنى ومدح الفقر

استهل ابن قتيبة حديثه عن الغنى والفقر بالحديث عن الغنى أولًا، وقد خالف صاحب العيون ما كانت تتوق له النفوس من الحديث عن مدح الغنى وذم الفقر، إذ جاء حديثه على عكس ما كانت تصبو إليه النفوس من التحبيب في الغنى وذم الفقر الذي ينفر منه الناس، وتتبدى الإثارة في العنوان الذي وضعه الرجل أول هذا الباب، فقد جعله "ذم الغنى ومدح الفقر"، وكأني به يريد أن يلقي في قلب القارئ صورة المذمة ويثبتها في نفسه من خلال تقديمه كلمة " ذم"، والموصوف بها الغنى، والذي أصله أن تمدحه النفوس والقلوب، ثم يأتي الفقر وحقه الذم ليأتي به ممدوحًا، ثم إن هناك أمرًا آخر يلوح في الأفق يتبدى في ما ابتدأ به الباب، إذ صدره بما نسبه لشريح القاضي، حيث قال: " الجِدَةُ كنيةُ البَهْل"[1] وكأني به بهذا الاستهلال يُصدر حكمًا قضى به قاض، ولا مناقضة لما حكم به والمعنى إن السعة والرفاهية في العيش تسلم صاحبها إلى الضيق والفقر.

١ – الجدة: والوُسِعُ، مُثَلَّثَةً: الجِدَةُ، والغِنَى، والرَّفاهِيَةُ، على المَثَلِ، والطَّاقَةُ} كالسَّعَةِ بالفَتْحِ، وقيلَ: هُوَ قَدْرُ جِدَةِ الرَّجُلِ، وقُدْرَةُ ذاتِ اليَدِ، ينظر: تاج العروس من جواهر القاموس، مادة " الواو، والسين، والعين". "قال عَمْرو الشَّيْبَانِيّ البَهْل: "الشَّيْء الْيَسِير الحقير، وَأنْشد: وَذُو اللُّبّ للبَهْل الحقير عَيُوفُ" ينظر: تهذيب اللغة للأزهري. لم أعثر على تلك المقولة إلا في كتاب عيون الأخبار منسوبة لشريح، وهو شريح القاضي في الغالب الأعم."

وقد أنشد ابن الأعرابيّ في ذم الغنى: من "البسيط":

المال يغشى رجالا لا طباخ بهم ... كالسّيل يغشى أصول الدّندن البالي"[1]"

جادت قريحة ابن الأعرابي بلوحة فنية بديعية، إذ جعل المال أحيانا مع أناس لاعقل لهم، فالعبرة ليست بالمال بقدر ما تؤول إلى صاحب المال، وقد اعتمد على صورة تمثيلة لتأكيد مراده، إذ قد يغشى السيل أطراف النبات القديم البالي، ولا مزية لهذا النبات سوى أنه الأقرب إلى الماء النازل من علٍ، ولعل استعمال الشاعر لكلمة يغشى في المشهدين يحمل دلالة المفاجأة في الصورتين، كما توحي بأن كلا من المال والماء أصاب صاحبه دون تعب منه، كما تدل على الكثرة كذلك، ثم إن صورة الرجال في المشهد الأول تضارع صورة الدندن البالي الذي أصابه السيل، ومن ثم فإن انتقاء المال للرجال الذين لا عقل لهم كانتقاء السيل لأعالي النبات البالي، فافتقاد الرجال للعقل أفقدهم متعة الاستفادة بالمال، كما أن النبات البالي لم يستفد بالماء الذي أصابه كذلك، أو أن الغني أصاب المال وضيعه، كما أصابت الماء أطراف النبات القديم وضيعته هي الأخرى.

وقال آخر: من "الطويل":

---

١ – عيون الأخبار، ١/ ٢٤٧، جاء البيت منسوبًا لحسان بن ثابت في المراجع الآتية: شرح ديوان الحماسة (ديوان الحماسة: اختاره أبو تمام حبيب بن أوس ت ٢٣١ هـ) المؤلف: يحيى بن علي بن محمد الشيبانيّ التبريزي، أبو زكريا (المتوفى: ٥٠٢هـ) ٢٥٣/٢، الناشر: دار القلم – بيروت لسان العرب، مادة " الطاء، والباء، والخاء". وتاج العروس المادة نفسها. وجاء في لسان العرب: "وَقَدْ جَاءَ هَذَا الْبَيْتُ في شعر لِحَيَّةَ بن خَلَفٍ الطَّائِيِّ يُخَاطِبُ امرأَة مِنْ بَنِي شمخَى بْنِ جَرْمٍ يُقَالُ لَهَا أَسماءُ، وَكَانَتْ تَقُولُ مَا لِحَيَّة مَالٌ فَقَالَ مُجَاوِبًا لَهَا:

تَقُولُ أَسماء لَمَّا جِئْتُ خَاطِبَهَا: ... يَا حيُّ مَا أَرَبي إِلَّا لِذِي مالِ "

ولستُ بنظّارٍ إلى جانب الغِنَى ... إذا كانت العلياءُ في جـــانب الفقر[١]
وإنّي لصبّار على ما ينــوبـني ... لأنّي رأيت الله أثنى عـلـى الـصـبر

استهل الشاعر بيتيه ببيان حاله مع الغني، معتمدًا على الفعل "نظر" بتشديد عينه ليحمل الفعل معنى المبالغة فهو لا ينظر إلى جانب الغنى، ثم إنه استعمل الغنى في صورة المصدر ليدل بذلك على الغنى المجرد أو على كل ما يصلح لأن يدخل في هذا الباب، ولو اكتفى الشاعر بذلك لظن السامع أنه لا يعبأ بالغنى إذ ربما كان واحدًا منهم، غير أن الأمر بخلاف ذلك، حيث حمل الشطر الثاني حجة مذهب الشاعر، ألا وهي أن العلياء في جانب الفقر؛ تلك الحجة التي كانت سببا في مزيد من التساؤل في نفس المتلقي، وكأني به يقول: كيف تكون العلياء في جانب الفقر؟ والنفس تنفر منه، يتحول الشاعر بعدها في البيت الثاني ليعلن أنه صبّار على ما ينوبه وما يقض مضجعه، وكأن "صبّار" تضارع "نظّار" ولا يخفى ما يحمله المصدران من صراع نفسي عميق، إذ يشيان بما يدور في النفس من محاولة النظر إلى الغنى، ثم تغلب الصبر على محاولة النظر، لتكون الغلبة للصبر، يختتم بعد بيتيه بما يدفع بالحجة التي يبتغيها إلى اطمئنان النفس وهدوئها وهي أن الله أثنى على الصبر؛ ولذا اختار ما أثنى عليه الله، وهذا ما حدا به ألا يتقرب من الغني لغناه، ولا يبتعد عن الفقير لفقره، وإنما المعيار عنده راجع إلى العلياء التي يركن إليها حيث ركنت، ولما كانت نفسه

١ – عيون الاخبار، ١/ ٢٤٧. وجاء البيتان منسوبين لأبي سعيد المخزومي في كتاب ربيع الأبرار ونصوص الأخيار، لجار الله الزمخشري توفي ٥٨٣ هـ، ٧٦/٥ الناشر: مؤسسة الأعلمي، بيروت الطبعة: الأولى، ١٤١٢ هـ. وجاء في صبح الأعشى البيت الأول منسوبا إلى المعدّل بن غيلان، ينظر صبح الأعشى في صناعة الإنشاء لأحمد بن علي بن أحمد الفزاري القلقشندي ثم القاهري (المتوفى: ٨٢١هـ) ٣٣٣/٢ الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت.

تميل إلى العلياء التي جنحت إلى الفقير وجانبت الغني، كان في حاجة إلى حجة يعضد بها رأيه؛ وليس هناك حجة أقوى من المعنى الذي طرحه القرآن، حيث أثنى الله على الصابرين، ومن ثم فهو صبار على مصائب الدهر.

وقال أعرابيّ يمدح قوما، ويمدح حالهم مع الفقر، وكيف يتعاملون معه من "الطويل"

إذا افتقروا عضّوا على الصبر حسبة ... وإن أيسروا عادوا سراعا إلى الفقر[1]

يرسم الأعرابي حاله مع العسر واليسر، فالصبر حسبتهم في الفقر، والإنفاق دأبهم حال الإيسار، تلك حالتان يتقلب فيهما القوم الذين يمدحهم الأعرابي، ويأتي تعبير الشاعر بقوله: " عضوا " لتدل على شدة ما يعاينه الفقير الصابر، وأنه يجالد نفسه ليكون صابرًا، وكأن الصبر شيء محسوس يُعض عليه بالنواجذ، ثم يأتي تعبير الشاعر في البيت الثاني عند تغير الحال وتحوله بقوله: " عادوا " ليحمل بين أعطافه مدى السرعة في العودة حال الإيسار إلى ما هو مستقر في نفوسهم، وهو الكرم وحب الإنفاق، وعلى هذا فمراد الشاعر مآله إلى تعلقهم بحب الإنفاق حال يسرهم؛ ومن ثم فلا يعنيهم أن يصبحوا فقراء.

العنصر الخامس: مدح الغنى

يأتي امتداح الناس للمال والغنى ليبرز مدى حبهم له وتعلقهم به، ولم لا والله جعله زينة الحياة الدنيا، وقد حفل كتاب عيون الأخبار بالعديد من النماذج الشعرية والنثرية التي يمتدح فيها الشعراء الغنى، ومما هو غير منكور أن للغنى حالات تختلف باختلاف ميول أصحابها فبعضهم يحب المال، ومنهم يحب الدور

١ – عيون الاخبار ١/ ٢٤٧. جاء البيت في شرح ديوان الحماسة بلا نسبة، لأبي على أحمد بن محمد بن الحسن المرزوقي الأصفهاني (المتوفى: ٤٢١ هـ)، تحقيق: غريد الشيخ، وضع فهارسه العامة: إبراهيم شمس الدين، ٦٨٩، نشر: دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، الطبعة: الأولى، ١٤٢٤ هـ – ٢٠٠٣ م.

والبيوت، ونرى ثالثًا يعشق الحيوانات ويجعلها مناطًا للافتخار مصدرا من مصادر الغنى والثراء، غير أن أحاديث شعراء العيون صرفوا نظرهم للغنى إلى المال الخالص دون تحديد لمكنونه، كما جعلوا الغنى سبيلًا لكل محمدة وتجاوز ذلك ليكون مصدر المروءة، ومن ذلك ما أنشد ابن الأعرابيّ: من "البسيط"

رُزقت لبّا ولم أرزق مروءته ... وما المروءة إلّا كثرة المال [١]

إذا أردت مساماة يقعّدني ... عما ينوّه باسمي رقّة الحال

ابتدأ الشاعر بيتيه بالفعل الماضي المبني للمجهول ليحمل بين طياته حقيقة مستقر في نفسه ونفس المتلقي؛ ألا وهي رجاحة العقل التي رزقها الله له، لكنه سرعان ما استدرك أمرًا مهمًا وهو أنه لم يرزق مروءة هذا العقل، ولا يخفى ما تثيره تلك العبارة من تساؤلات في نفس المتلقي، غير أنه كان حريصًا على سرعة إزالة تلك التساؤلات التي رانت على النفس معلنا في صراحة تامة ودون مواربة أن المروءة تكمن في كثرة المال، ثم إن الشاعر لم يكتف بذلك بل أراد تأكيد مدح الغنى من خلال حجة عقلية تتوافق مع واقع الحياة وكأنها تجربة حياتية، فكلما أراد بلوغ منزلة سامقة أقعده الفقر عما تصبو إليه نفسه. ويأتي استعمال الشاعر لكلمة " رزقت " مبنية لما لم يسم فاعله لتكون دالة على أن

١ – جاء البيتان منسوبين للخليل بن أحمد في كتاب شرح ديوان المتنبي لأبي البقاء عبد الله بن الحسين بن عبد الله العكبري البغدادي محب الدين (المتوفى: ٦١٦هـ) تحقيق: مصطفى السقا/إبراهيم الإبياري/عبد الحفيظ شلبي،٢٢/٢،نشر: دار المعرفة – بيروت. وجاء البيت الأول منسوبًا إلى سهل بن هارون في الدر الفريد وبيت القصيد لمحمد بن أيدمر المستعصمي (٦٣٩ هـ – ٧١٠ هـ) تحقيق: الدكتور كامل سلمان الجبوري ٣٢٤/٦،نشر: دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، الطبعة: الأولى، ١٤٣٦ هـ – ٢٠١٥م.

رجاحة العقل أمر لا دخل له فيه، على أنه من جهة كسب المال ساع إليه دون كلل أو ملل فالعقل بلا مال كثير سبب في افتقاد صاحبه المروءة.

وقال آخر مادحًا المال وجعله السر السحري لإخفاء العيوب: من "الطويل"

يُغطّي عيوبَ المرءِ كثرةُ مالِه ... يُصدَّق فيما قال وهو كَذوبُ [1]

ويُزرِي بعقل المرءِ قِلّةُ مالِه ... يُحَمّقه الأقوامُ وهو لبيبُ

جاء البيتان في صورة أربع جُمل خبرية معتمدة الفعل المضارع طريقًا في تثبيت تلك الأخبار، وقد وزع الشاعر على كل شطر من الأشطر الأربعة خبرًا، وجاءت الأفعال الأربعة في صورة البناء للمجهول، ولو تأمل القارئ البيتين السابقين لبدا له خلوها من المؤكدات التي تدعم صدق هذه الأخبار؛ وكأني بصاحب البيتين يسوق مسلمات لا جدال فيها فالمال غطاء لعيوب المرء، وصاحب المال مصدق حتى ولو كان كاذبًا، بينما قليل المال لا عقل له، والحمق بادٍ عليه ولو كان لبيبًا. ولعل من اللافت للنظر اتكاء الشاعر على الجمل الاسمية في إثبات صفتي كثرة المال وقلته، وصفتي الكذوب واللبيب، وتحمل الجمل الاسمية ثباتا واستقرارا لتلك الصفات وكأنها لا تنفك عن صاحبها، على أنه جعل الجمل المضارعة مصدرًا يعتمد عليه في تجدد التغطية، والتصديق، و الازدراء، والحمق، ولا يخفى تجدد هذه الصفات مع أصحابها في المواقف الحياتية المتكررة. وتأتي المقابلة بين "كثرة، وقلة"، وبين "يصدق، وكذوب"، وبين "يحمقه، ولبيب" لتساعد في تثبيت الصورة في ذهن المتلقي، كما أنها تأخذ بيد القارئ ليستحضر الصورة والصورة المقابلة، غير أن الشاعر لم يعتمد المقابلة في بناء الكلمات حيث استعمل الفعل المضارع يصدق واستعمل المصدر مع الكذب " كذوب" وتشي هذه المفارقة بأن الصدق يتكرر بتكرار

١ – عيون الاخبار، ١/ ٢٤٠، والبيتان في ديوان المعاني بلا نسبة كذلك، ٢/٢٤٧.

دواعيه، كما أنه مرهون بمن يصدق صاحب المال، على الرغم من أن الكذب ملازم له ولا ينفك عنه أصلًا، وتأتي الصورة الأخرى مستعملة " يُحمّقه" بالفعل المضارع، و" لبيب" بصيغة المصدر لتتآزر مع الصورة السابقة، فالوصف بالحمق موقوف على تكرر دواعيه، على الرغم من رجاحة عقل صاحبه لكنه المال الذي يجعل النفس تميل إليه، وأنشد الرّياشيّ في امتداح المال: من " البسيط"

غضبانُ يعلمُ أنّ المالَ ساقٍ له ... ما لم يَسُقْه له دينٌ ولا خُلُقُ (١)

لولا ثلاثون ألفا سُقْتها بَطَرا ... إلى ثلاثين ألفا ضاقت الطُّرُقُ

فمن يكن عن كرام الناسِ يسألني ... فأكرمُ الناسِ من كانت له وَرِقُ

يبرز الرياشي في أبياته التي أنشدها تجربة لصاحب مال لم يرض عما خصه المجتمع به بسب المال، حيث أعلن عن نفسه الغاضبة من هذا السلوك، ومرد الأمر إلى رؤية المجتمع لصاحب المال، فالمال يسوق لصاحبه ما لا يسوقه الدين والخلق، ويأتي صاحب المال ليضع حدًا لما يمكن أن يكون غنيًا؛ ألا وهو ثلاثون ألفًا، سواء أكانت الثلاثون ساقها بطرًا وكبرًا، أم ساق لها ثلاثين أخرى حتى ضاقت الطرقات بهذا المال الكثير، ثم يأتي ختام الأبيات ليؤكد من خلاله ما يموج في عقول الناس، ليعلن في مصارحة تامة رد فعل المجتمع تجاه صاحب المال، عن طريق السؤال الذي يحتاج إلى جواب، وكأني به يأخذ الحجة والإقرار من المسؤول؛ لتأتي الإجابة في صورة قضية كلية موجبة معلنة أن كرام

١ – عيون الأخبار، ١/ ٢٤٠. ذكر الماوردي البيت الأول والثالث في كتابه: أدب الدنيا والدين، ٢٤٤. وورد البيت الأول والثالث في ديوان المعاني بلا نسبة: ينظر: ديوان المعاني، لأبي هلال الحسن بن عبد الله بن سهل بن سعيد بن يحيى بن مهران العسكري (المتوفى: نحو ٣٩٥هـ)، ٢/٢٤٧، نشر: دار الجيل – بيروت.

الناس من كان له الذهب والفضة، ومن ليس كذلك فليخرج من تحت عباءة الكرام، وليبحث له عن مهيع آخر يحمله إلى مصاف الكرام.

وقال أحيحة بن الجلاح الأوسي في حب المال: من "البسيط"

استغن أو مت ولا يغررك ذو نشب ... من ابن عمّ ولا عمّ ولا خال [1]

يلوون ما عندهم من حق أقربهم ... وعن صديقهم والمال بالوالي

ولا أزال على الزّوراء أعمرها ... إنّ الكريم على الإخوان ذو المال

كلّ النداء إذا ناديت يخذلني ... إلّا ندائي إذا ناديت يا مالي

يرسم أحيحة في أبياته مدى حبه المال، وأثره على النفس، ولعل ذلك ما دعاه لأن يستهل أبياته بفعل الأمر " استغن" ثم " مت"، وما ذلك إلا لأنه عوتب بسب بخله، فأرد أن يبرز لمن عتب عليه مذهبه مع المال، وكان مما ساعده في المجاهر بهذا ما اتكأ عليه من فعلي الأمر ثم إردافهما بالفعل المضارع المسبوق بلا الناهية لتتآزر الأوامر الثلاثة في تأكيد ما رامه الشاعر وكأني به يمهد لما هو آت من عدم الاغترار بأصحاب القوة حتى ولو كانوا ذوي القربي من ابن العم أو العم أو الخال، وما ذلك إلا لأنهم يبخلون بما عندهم ولو كانوا من الأقارب، أما هو فلا يزال قائمًا على أرض الزوراء ساعيًا إلى إعمارها، ليكون من الكرام أصحاب الأموال، ومرد ذلك إلى أنه "كان له بالزوراء في المدينة ما لم يكن لأحد

---

١ – عيون الأخبار، ١/ ٢٤٠، وينظر: البخلاء، لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، تحقيق : أحمد العوامري بك – علي الجارم بك، ١٣٤/٢، نشر: دار الكتب العلمية لبنان / بيروت – ١٤٢٢هـ. هو: هُوَ أحيحة بن الجلاح بن الْحَرِيش بن جحجبى بن كلفة بن عَوْف بن عَمْرو بن مَالك بن)، وَكَانَ أحيحة سيد الْأَوْس فِي الْجَاهِلِيَّة. ينظر: خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب، لعبد القادر بن عمر البغدادي (المتوفى: ١٠٩٣هـ)، تحقيق وشرح: عبد السلام محمد هارون، ٣٥٧/٣، نشر: مكتبة الخانجي، القاهرة، الطبعة: الرابعة، ١٤١٨ هـ – ١٩٩٧ م.

من التمر، فرآه شخص وهو يلقط تمرة فعاتبه، فقال: "التمرة إلى التمرة تمر" [١] ويحاول الشاعر تعضيد مذهبه من خلال التأكيد على النداءات التي لا تثمن ولا تغني من جوع إلا نداء واحدًا ألا وهو نداؤه لماله، وقد كان مذهب أحيحة في حب المال سببًا في قول الأوس له: "فضحتنا ببخلك، كلما أردنا أن نقدمك قالوا: بخيل لا يصلح للتقديم".[٢]

العنصر السادس: ذم الفقر:

يأتي حديث الشعراء عن ذم الفقر متآزرًا مع ما يدور في نفوس غالب الناس، فمن المسلم به أن النفس تمج الفقر وتتوق للغنى، ومن ثم جاءت نظرات الشعراء للفقر مصورة ما يدور في عقول الناس، وجاء استهلال ابن قتيبة حديثة عن باب الشرف والسُّودَد بالمال، وذم الفقر والحض على الكسب بالأبيات التي أنشدها ابن الأعرابي، تلكم الأبيات التي تذم الفقر من كل وجوهه، حتى لو كان الفقير منسبًا شريفًا في قومه.

أنشد ابن الأعرابي: من " الطويل"

ومن يفتقر في قومه يحَمِد الغنى ... وإن كان فيهم ماجدَ العمّ مُخْوِلا[٣]
يمنّون إن أعطوا ويبخل بعضهم ... ويُحْسبُ عجزا سكْتُه إن تجمّلا
ويُزْري بعقل المرء قلّة ماله... وإن كان أقوى من رجال وأحْولا

١ – نشوة الطرب في تاريخ جاهلية العرب، لابن سعيد الأندلسي، تحقيق: الدكتور نصرت عبد الرحمن، ١٩٠، نشر: مكتبة الأقصى، عمان – الأردن.

٢ – المرجع السابق الصفحة ذاتها.

٣ – جاءت الأبيات منسوبة إلى جابر بن ثعلب الطائي في كتاب شرح كتاب الحماسة للفارسي (مطبوع مع: شروح حماسة أبي تمام دراسة موازنة في مناهجها وتطبيقها) لأبي القاسم زيد بن علي الفارسيّ (المتوفى: ٤٦٧ هـ)، تحقيق: د. محمد عثمان علي،١٩٢/٢، نشر: دار الأوزاعي – بيروت، الطبعة: الأولى.

وقد رسم الشاعر في أبياته صورة الغني الذي أصبح فقيرًا؛ وذلك من خلال قوله: ومن يفتقر في قومه يحمد الغنى" مما يعني أنه كان غنيًا ثم صار فقيرًا، ثم تأتي عبارة "في قومه" دالة على حاله التي كان عليها والتي صار إليها، فعلى الرغم من أن ابن عمه وابن خاله من أغنياء القوم لكنهم يحتقرونه من فقره، لدرجة إنهم يمنون حال الإعطاء، بل ويبخلون أحيانا، ولو رام الفقير التجمل في السكوت حسبوه عجزًا، وليت الأمر مقصور على ذلك، بل يمتد إلى ازدراء العقل ما ذلك إلا لقلة المال، حتى لو كان قويًا صاحب حيلة، فماط الفخر والشرف ورجاحة العقل مرده إلى المال. وقد تآزرت الأبيات السابقة مع ما قرأه صاحب العيون في كتاب للهند، والذي جاء فيه: "ليس من خلَّة يُمدح بها الغنيّ إلا ذُمّ بها الفقير، فإن كان شجاعًا قيل أهوج، وإن كان وقورًا قيل بليد، وإن كان لسنًا قيل مهذار، وإن كان زمّيتا (١) قيل عييّ". تأتي عبارة أهل الهند مصدرة بأسلوب القصر معتمدة طريق النفي والاستثناء لتأكيد صورة الغني وصورة الفقير من وجهة نظر المجتمع، وكأن عيونهم مغلقة عن مساوئ الغني، مفتوحة لترصد كل منقصة للفقير، فشجاعة الفقير هوج، ووقاره بلادة، وفصاحته هذر من القول، وحلمه إعياء، والأمر عكس ذلك مع الغني.

وعلى درب ذم الفقر يسير ابن قتيبة من خلال قول الشاعر: من "البسيط"

الفقر يزري بأقوام ذوي حسب ... وقد يُسوِّد غيرَ السّيدِ المالُ(٢)

يبرز صاحب هذا البيت حال الفقير ذي الحسب والنسب، معلنًا في بيته الصورة المستقرة في نفوس غالب الناس، فعلى الرغم من علو نسب الفقير إلا إن ذلك لم يشفع له ليعلو قدره بين الناس، إذ الفقر سبب في ازدائه بين الناس، وعلى

١ – الزَّمِيتُ والزِّمِّيتُ: الْحَلِيمُ السَّاكِنُ، الْقَلِيلُ الْكَلَامِ. لسان العرب مادة "زمت".

٢ – جاء البيت منسوبا إلى حية بن خلف الطائي في اسان العرب مادة " طبخ".

النقيض من ذلك نجدٌ أقوامًا ليسوا سادة بين قومهم لكنَّ مالَهم سودهم عليهم، وقد كان الشاعر دقيقًا في تعبيره حيث استعمل الجملة الاسمية في رسم صورة الفقير ذي الحسب؛ لتفيد الثبات والاستقرار وكأن الصورة مستقرة في نوس الناس لا تنفك عن أذهانهم، لكنه استعمل الجملة الفعلية المضارعة المسبوقة بقد مع صورة السيد صاحب المال ليفيد من خلالها أن سيادته قد لا تدوم، أو أن مرجع سيادته أصحاب النفوس الضعيفة.

ومما يدخل في هذا الباب ما حدث للأعرابي الذي ضجر بكثرة العيال والولد مع الفقر، وبلغه أنّ الوباء بخيبر شديد فخرج إليها بعياله يعرّضهم للموت، وأنشأ يقول: من "الرجز"

قلتُ لحميّ خيبرَ استعدّي ... هاكَ عيالي واجهدي وجدّي [١]

وباكري بصالـــبٍ وورِدِ ... أعانكِ اللهُ عـلـــى ذا الجندِ

فأخذته الحمّى فمات هو وبقي عياله. [٢]

تأتي قصة الأعرابي مع عياله وهو فقير متنافية مع ما جاء به الشارع الحنيف من عدم قتل الأولاد خشية الفقر، أو مع وجود الفقر، فالله يرزقنا وإياهم ويرزقهم وإيانا قال تعالى: " وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ "، وقال أيضًا: " وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كانَ خِطْأً كَبِـيراً"[٣]، كما أنها تتنافي مع حديث الرسول – صلى الله عليه وسلم– الذي جاء في صحيح البخاري "أَنَّ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عُمَرَ، يَقُولُ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ –

١ – عيون الاخبار ٢٤٩/١.

٢ – (حمى خَيْبَر) "يضْرب بهَا الْمثل لِأَن خَيْبَر مَخْصُوصَة بالحمى والوباء" ينظر: ثمار القلوب في المضاف والمنسوب، لعبد الملك بن محمد ابن إسماعيل أبو منصور الثعالبي (المتوفى: ٤٢٩هـ)، ٥٤٩، نشر: دار المعارف – القاهرة

٣ – الآيتان في سورتي الأنعام آية رقم ١٥٣، وسورة الإسراء آية رقم ٢١.

صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- يَقُولُ: «كُلُّكُمْ رَاعٍ، وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، الإِمَامُ رَاعٍ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، وَالرَّجُلُ رَاعٍ فِي أَهْلِهِ وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، وَالمَرْأَةُ رَاعِيَةٌ فِي بَيْتِ زَوْجِهَا وَمَسْئُولَةٌ عَنْ رَعِيَّتِهَا، وَالخَادِمُ رَاعٍ فِي مَالِ سَيِّدِهِ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ» قَالَ: - وَحَسِبْتُ أَنْ قَدْ قَالَ - «وَالرَّجُلُ رَاعٍ فِي مَالِ أَبِيهِ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، وَكُلُّكُمْ رَاعٍ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ» [1]. "وكان أهلها يهوداً يزعمون أن من أراد دخول خيبر على بابها أربعة، وينهق نهيق الحمار عشر مرات لا تضره حمى خيبر، ويسمى ذلك تعشيراً" [2] ولو تأملنا زعم اليهود وما رامه الأعرابي من دخوله وأبنائه أرض خيبر، ثم ما حدث له ولهم، لتأكد عدم صدق اليهود في زعمهم، إذ لو كان كلامهم صحيحًا لهلك الأولاد ونجا الأعرابي، فلو تصورنا أن الأعرابي صنع ما زعمه اليود قبل دخول أرض خيبر من الوقوف أربعة، ثم نهيقه عشر مرات لنجا هو وهلك الأولاد لأنهم لم يصنعوا لكن العكس هو الذي حدث فهلك من شايع اليهود ونجا من خالفهم. وقد أبى عروة الصعاليك أن يعشر كما عشر أصحابه عندما أرادوا دخول خيبر. [3]

---

١ - فتح الباري شرح صحيح البخاري، لزين الدين عبد الرحمن بن أحمد بن رجب بن الحسن، السَلامي، البغدادي، ثم الدمشقي، الحنبلي (المتوفى: ٧٩٥هـ) تحقيق: محمود بن شعبان بن عبد المقصود، وآخرون، ١٤١/٨، نشر: مكتبة الغرباء الأثرية - المدينة النبوية. مكتب تحقيق دار الحرمين - القاهرة الطبعة: الأولى، ١٤١٧ هـ - ١٩٩٦ م

٢ - آثار البلاد وأخبار العباد لزكريا بن محمد بن محمود القزويني (المتوفى: ٦٨٢هـ)، ٩٢، نشر: دار صادر - بيروت.

٣ - ينظر: آثار البلاد وأخبار العباد، ٩٢. وقد جاء ما يفيد بأن العيال بنات ردا على من يقول بأن العرب اقتصروا على قتل البنات دون البنين "قَالَ ابْن الْأَعرَابِي: كثر عِيَال رجل من طَيء من بَنَات وَزَوْجَة، فَخرج بِهن إِلَى خَيْبَر يعرضن لحماهن" وينظر: المحكم والمحيط الأعظم، لأبي الحسن علي بن إسماعيل بن سيده المرسي (ت: ٤٥٨هـ)، تحقيق: عبد الحميد هنداوي، ٢٢٧/٤، نشر: دار الكتب العلمية - بيروت الطبعة: الأولى، ١٤٢١ هـ - ٢٠٠٠ م.

العنصر السابع: فلسفة المال وعدمه

للمال نَوْطة في القلوب وعلوق بالنفس، ولا يخفى ذلك الشوق وتلك المحبة وهذا التعلق على أحد؛ ومن ثم فتحاج النفس إلى المجاهدة حيث تسعي للمزيد منه من جهة أو الحفاظ عليه من جهة أخرى، وقد حملت نظرات الشعراء للمال فلسفة المال وعدمه، ومن ذلك قول حسّان: من " الخفيف"

ربّ حِلم أضاعه عَدَمُ الما ... لِ وجهلٍ غطّى عليه النعيمُ [١]

استهل ابن الفريعة بيته بحرف الجر رب ليدلل به على عدم قطعية الأمر وثبوته، فقلة المال قد تكون سببًا في ضياع بهاء الحلم ورونقه، وعلى الوجه الآخر ربما كفر الجهل النعيم.

وقال الهذليّ : " من الوافر"

رأيت معـاشرًا يُثنَى عليـهـمْ ... إذا شبعوا وأوجههم قباح [٢]

يظلّ المصرمون لهم سجودا ... ولو لم يسق عندهمُ ضياح

يعلن مالك بن الحارث الهذلي في البيتين السابقين بشكل صريح ما رآه معاينة من حال شبع بعد كان جائعًا، حيث يثني عليه الناس على من قبح وجوههم، وي كأن المال هو المعول عليه ليكون الثناء والمدح، وأما حال من لا مال لهم فيعظمون من له مال على الرغم من أنهم حرموهم من مالهم.

---

١ – عيون الأخبار، ١/ ٢٤٠.

٢ – عيون الأخبار ١/٢٤٠، والبيتان منسوبان لمالكُ بنُ الحارث أخو بنى كاهل بن الحارث ابن تَميم بن سعد بن هذُيل ينظر: ديوان الهذليين، ترتيب وتعليق: محمّد محمود الشنقيطي، ٣/ ٨٢، نشر: الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة – جمهورية مصر العربية، ١٣٨٥ هـ – ١٩٦٥ م.

ويأتي الطائيّ بصورة مقاربة للصورة السابقة غير أنها حملت حسن تعليل رائق لعدم بقاء الماء في المكان العالي، حيث يقول عندما دخل على الحسن بن رجاء مادحًا له فأنشده: "من الكامل"

لا تنكري عَطَلَ الكريمِ من الغنى ... فالسيلُ حربٌ للمكان العالي [1]

يحمل بيت حبيب بن أوس الطائي رؤية فلسفية تعليلية بديعة لصورة الكريم الخالي من المال، والمكان العالي الذي لا يثبت به الماء، فكما أن الكريم معطل عن المال بسب كرمه، لأن ما بيده ليس له وإنما لغيره، كذلك المكان العالي لا يثبت به الماء وإنما هو بمثابة قناة لتوصيل الماء إلى المكان المنخفض، ولا يخفى ما تحمله الصورة من العلو في المشهدين، فالكريم يده أعلى من غيره، وكذلك المكان العالي.

وتحمل الصورة السابقة الجامعة للكريم الفقير، والمكان العالي الخالي من الماء، هو أن كلا منهما يصيب أجود ما وقع في يده أولًا، فالمال الذي يقع في يد الكريم قد ينتفع بجزء منه قبل أن يصل لغيره، وكذلك المكان العالي يستفيد بجزء من الماء قبل أن يستقر في المكان المنخفض.

---

١ – عيون الأخبار، ١/ ٢٤٧، وينظر: شرح ديوان الحماسة، لأبي على أحمد بن محمد بن الحسن المرزوقي الأصفهاني (المتوفى: ٤٢١ هـ)، ، ١/ ١١٨٤. وينظر: مرآة الزمان في تواريخ الأعيان، لشمس الدين أبو المظفر يوسف بن قِزْأُوغلي بن عبد الله المعروف بـ «سبط ابن الجوزي» (٥٨١ – ٦٥٤ هـ) تحقيق وتعليق: [بأول كل جزء تفصيل أسماء محققيه] محمد بركات، كامل محمد الخراط، عمار ريحاوي، محمد رضوان عرقسوسي، أنور طالب، فادي المغربي، رضوان مامو، محمد معتز كريم الدين، زاهر إسحاق، محمد أنس الخن، إبراهيم الزيبق، ٤٣٢/١٤، نشر: دار الرسالة العالمية، دمشق – سوريا، الطبعة: الأولى، ١٤٣٤ هـ – ٢٠١٣ م.

وقال آخر مبرزا مدى اعتزازه بنفسه من خلال نظرة فلسفية للمال، حيث يقول: [١]: من "مجزوء المديد"

ليس لي مال سوى كرمي ... فيه لي أمن من العدم
لا أقول الله أعدمني ... كيف أشكو غير متّهم
قنعتُ نفسي بما رُزقت ... وتمطّت بالعلى همم
وجعلتُ الصبرَ سابغةً ... فهي من قرني إلى قدمي
فإذا ما الدّهر عاتبني ... لم يجدني كافرا نعمي

يختتم ابن قتيبة حديثه عن الغنى والفقر بأبيات تحمل في طياتها اعتزازًا بالنفس في مواجهة قلة المال، فقد استهل الشاعر أبياته بأسلوب القصر متكأً على النفي والاستثناء وكأني به يوجه رسالة للقارئ ليعلن فيها عن كرمه على الرغم من فقره، إذ لا ارتباط بين الكرم والغنى أو الفقر فالكرم راجع إلى نفس صاحبه، ثم يأتي بكلام أجراه على لسانه لتأكيد أن الله ما أعدمه كل شيء وأنه

١ – جاء في الروض الباسم " وأنشدني أحمد بن أبي الليث المصري، أنشدني محمَّد بن جَعْفَر قال: أنشدنا أبو العز لنفسه" الرّوض الباسم في تراجم شيوخ الحاكم، لأبي الطيب نايف بن صلاح بن علي المنصوري، قدم له: فضيلة الشيخ الأستاذ الدكتور سعد بن عبد الله الحميد، وفضلية الشيخ الدكتور حسن محمد مقبولي الأهدل، وقدم له وراجعه ولخص أحكامه: فضيلة الشيخ أبو الحسن مصطفى بن إسماعيل السليماني، ٣٤٤/١، نشر: دار العاصمة للنشر والتوزيع، الرياض – المملكة العربية السعودية، الطبعة: الأولى، ١٤٣٢ هـ – ٢٠١١ م. وينظر تاريخ دمشق، لأبي القاسم علي بن الحسن بن هبة الله المعروف بابن عساكر (المتوفى: ٥٧١هـ)، تحقيق: عمرو بن غرامة العمروي، ٥٦/١، نشر: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ١٤١٥ هـ – ١٩٩٥ م. وجاء منسوبا لأبي العَبَر في كتاب الزهرة، ينظر الزهرة لابي بكر محمد بن داود الأصبهاني، حققه وقدم له وعلق عليه د/ إبراهيم السامرائي،٦٦٧، مكتبة المنار الأردن، الطبعة الثانية، ١٤٠٦، ١٩٨٥م. وقد جاءت الابيات في باب ذكر من أظهر الجزع من الفقر، وقنع به، وافتخر بالصبر.

لا يشكو من الفقر، كما أنه لا يتهم أحدًا بسبب حاله تلك، وكأن البيت الثاني بمثابة مقدمة للبيت الثالث الذي سطر فيه قناعته بما رزقه الله، ثم إن همته ليست فاترة أو ضعيفة فهمته قادرة على امتطاء العلاء، بما تسلحت به من الصبر الذي سبغها من أعلى رأسه حتى قدمه، ولو تجرأ أحد ليعاتبه حتى ولو كان الدهر ما وجده منكرًا النعم التي أحاطت به. وقد حمّل الشاعر أبياته مجموعة من الصور الكنائية الرائعة التي ساعدته في رسم المشاهد التي يرومها، كما كان لها دور سامق في تثبيت الصورة في ذهن المتلقي، من مثل صورة امتطاء همته العلا، وصورة عتاب الدهر.

وقد جاء البيت الأخير في كتب الروض الباسم، وتاريخ دمشق، والزهرة برواية " كافر النعم" في حين جاءت الرواية في العيون " كافرا نعمي" ولو دققنا النظر في لطائف معنى كل رواية لبدا أن رواية العيون بإضافة النعم إلى ضمير المتكلم تشي وكأنه استأثر بهذه النعم وحده، كما توحي بأن النعم سبغته كله، وأما رواية كافر النعم، فتأتي دالة على أن النعم معروفة للقاضي والداني ومن ثم لا يستطيع أن ينكرها هو ولا من نظر إليه.

المبحث الثاني: النثر

العنصر الأول: الحكم

وللحكماء دور لا ينكر في هذا الباب، ومما أبدوه عن المال ما قاله أكثم بن صيفيّ، حيث رسم رؤية أخرى للغنى والفقر، عندما قال: "ما يسرّني أني مكفيّ كلّ أمر الدنيا". قيل: وإن أسمنتَ وألبنتَ؟ قال: نعم، أكره عادة العجز".[١] إذ يتبدى من كلامه حب العمل والسعي، وأن يكسب المرء من سعيه، حيث بدأ عبارته بالفعل المضارع المنفي راسمًا من خلاله حالته المزاجية ما لو كُفي كل أمر الدنيا، وأن ذلك الأمر يسوؤه، ثم يختتم كلامه معللًا مذهبه في ذلك، حيث يكره العجز. ويشي استعمال الفعل المضارع تجدد الكفاية بتجدد الحاجة، وعلى الرغم من ذلك يظل ثابتًا على رأيه متمسكًا بمذهبه، وقد ساق أكثم كلامه في صورة حوار دار بينه وبين شخص آخر، وكأني به يؤسس منهجًا ثابتًا قد استقر في نفسه، على الرغم مما يظهر في ما قدمه السائل له من مغريات تكمن في قوله: "وإن أسمنت وألبنت"، يُصدر بعدها أكثم علته التي حسم بها القضية فهو رجل يكره عادة العجز، ويحمل التعبير بالفعل الماضي " أكره" استقرار الكره في النفس، ثم إنه كاره شيئًا تمجه النفس ألا وهو العجز الذي جعله عادة مما يعني، أنه باغض له لو أضحى عادة لمن يتصف به.

ومما يدخل في باب الحكمة في تناول المال ما قيل للأعرابي: إن فلانا أفاد مالا عظيما قال: فهل أفاد معه أياما ينفقه فيها؟ تحمل العبارة السابقة حكمة للفت الأنظار بعدم السعادة بالمال العظيم، فقد يصيب الواحد مالًا ولا عمر له حتى ينفقه، فما جدوى المال عندئذٍ، ومن ثم فالسعادة في كسب المال الحلال وإنفاقه في حلال، واستمتاع صاحبه به.

---

١ – لم أعثر على كلام أكثم بن صيفي إلا في كتاب عيون الأخبار، ١/ ٢٤٦..

وجاء في كتاب للهند: ذو المروءة يُكْرَم مُعْدَما كالأسد يهاب وإن كان رابضا، ومن لا مروءة له يهان وإن كان موسرا كالكلب وإن طُوّق وحُلّى [1]. تحمل العبارة السابقة حكمة مبنية على باب التشبيه لتثبيت الصورة في ذهن المتلقي، فلا أحد ينكر أن صاحب المروءة يُكرم حتى ولو كان معدمًا، إذ المروءة هي الدافع لإكرامه، سواء أكان معه مالًا أم لا، وشأن صاحب المروءة المعدم كالأسد الذي يهابه الناس على الرغم من أنه رابض، ثم يمعن أهل الهند لبيان الممايزة بين صاحب المروءة وغيره، حيث رسموا صورة تشبيهه أخرى لعديم المروءة فهو كالكلب حتى ولو كان موسرًا، ويتبدى من خلال الحكمة أن المروءة هي الفاصل في أخلاق الرجال، فالمروءة تعلي من شأن صاحبها ليصبح كالأسد، ومن لا مروءة فيه كالكلب مهما كثر ماله.

ويواصل ابن قتيبة بيان رؤيته للغنى والفقر من خلال ما سطره من بعض العبارات المنثورة، وكان أول حظها من نصيب أنس بن مالك، قال أنس بن مالك: لمّا خرج مروان من المدينة مرّ بماله بذي خُشُبٍ[2]، فلما نظر إليه قال:

---

١ – لم أعثر على هذه العبارة إلا في كتابين أحدهما عيون الاخبار والآخر: المجالسة وجواهر العلم لأبي بكر أحمد بن مروان الدينوري المالكي (المتوفى : ٣٣٣هـ)، تحقيق : أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان، ٢٦٩/٥، نشر: جمعية التربية الإسلامية (البحرين – أم الحصم) ، دار ابن حزم (بيروت – لبنان) ١٤١٩هـ. وقد نص صاحب الكتاب الثاني على أنه سمع ابن قتيبة يقول قرأت في كتب الهند.

٢ – ذو خشب: بضم أوله وثانيه، وآخره باء موحدة: واد على مسيرة ليلة من المدينة، له ذكر كثير في الحديث والمغازي. ، وقال قوم: خشب جبل، والخشب: من أودية العالية باليمامة وهو جمع أخشب، وهو الخشن الغليظ من الجبال، ويقال: هو الذي لا يرتقى فيه، وقال شاعر: أبت عيني بذي خشب تنام ... وأبكتها المنازل والخيام

معجم البلدان شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومي الحموي (المتوفى: ٦٢٦هـ)، ٣٧٢/٢، الناشر: دار صادر، بيروت الطبعة: الثانية، ١٩٩٥ م.

ليس المال إلا ما أُشرِجت عليه المناطقُ. ويتبدى من خلال العبارة السابقة رؤية أنس بن مالك للمال، فما جدوى المال والواحد منا في مكان قفر لا يستطيع الانتفاع به، إنما العبرة بمن حمل مالا معه، وكان في مكان يستطيع التمتع؛ وذاك سر قول العبارة لمروان في أثناء مروره بوادي ذي خُشبٍ.

وروي عن المسيح أنّه قال: في المال ثلاث خصال، قالوا: وما هي يا روح الله: قال: لا يكسبه من حلّه قالوا: فإن فعل قال: يمنعه من حقّه، قالوا: فإن لم يفعل، قال: يشغله إصلاحه عن عبادة ربه. وتحمل الرواية المنسوبة لسيدنا عيسى – عليه الصلاة والسلام– نظرةً مثلثة للمال فهو إن كسبه من غير حله؛ منع حق المال، وإن لم يفعل انشغل بإصلاحه عن عبادة الله، والنظرة كما هي بادية عن المال المكسوب من غير حلٍ، مما يعني أن المال المكسوب من حل قد لا ينسحب عليه الحالات السابقة.

وقال أعرابيّ: الغنيّ من كثرت حسناته والفقير من قلّ نصيبه منها. يحمل كلام الاعرابي نظرة للغنى والفقر تجانب نظرة المال وعدمه، إذ جعل الغني غنيًا بحسانته، والفقير فقيرًا بسيئاته، ومن ثم فالمال ليس سببًا للغنى أو الفقر، إنما الغنى في حسنات صاحبها، والفقر في عدمها.

ومما يدخل في هذا المبحث أحاديث الحكماء عن المال وعدمه مقولة أبي عبيد الله الكاتب: الصبر على حقوق المروءة أشدّ من الصبر على ألم الحاجة، وذِلَّة الفقر مانعةٌ من عزّ الصبر كما أنّ عزّ الغنى مانع من كرم الإنصاف.[١]

جاءت العبارة السابقة على لسان أبي عبيد الله الكاتب، لتوازن بين نوعين من الصبر، أحدهما من مستتبعات المروءة، والآخر يحمل ذلًا لصاحبه، وعلى

١ – جاءت المقولة على لسان أحد الأشراف دون تسمية اسمه في كتاب: المجالسة وجواهر العلم، سلمان، ٢٦٩/٥.

كل واحد منا أن يختار ما يناسبه، ومما لا مرية فيه أن الصبر على حقوق المروءة أشد وأفضل وأعلى من الصبر على ألم الحاجة، وقد كان أبو عبيد الله حصيفًا دقيقًا في عبارته عندما جعل متطلبات المروءة حقًا وعلى هذا فكل من ارتدى ثوب المروءة فليعرف أن لها حقوقًا وواجبات لابد وأن ينهض بها، ثم إنه استعمل مع الصبر على الحاجة لفظة " ألم" وكأني به يريد التنفير من هذا السلوك المشين الذي ينقص من هيبة صاحبه.

وكتب عمر بن الخطاب إلى ابنه عبد الله: يا بنيّ، اتق الله، فإنه من اتّق الله وقاه، ومن توكّل عليه كفاه، ومن شكره زاده، فلتكن التقوى عماد عينيك وجلاء قلبك، واعلم أنه لا عمل لمن لا نية له ولا أجر لمن لا حسبة له، ولا مال لمن لا رفق له، ولا جديد لمن لا خلق له.

تأتي وصية سيدنا عمر بن الخطاب قبيل انتهاء حديث ابن قتيبة عن ذم الغنى ومدح الفقر، لترسم الطريق الذي ينبغي أن ينتهجه العبد مع ربه، وهي مجموعة من الوصايا العامة التي تتعلق بخلق المسلم، وليس للمال منها نصيب إلا في نهاية الوصايا حيث قال: " ولا مال لمن لا رفق له" فينبغي على صاحب المال أن يترفق بمن لا مال له، حتى في الأحاديث العادية.

العنصر الثاني: تجارب اجتماعية

ومما يدخل في التجارب الاجتماعية ما قال بعض المتكلمين في ذمّ الغنى، متطلعًا في حُكْمه من خلال مجموعة من التجارب الاجتماعية التي تبين حال الغني والفقير "ألم تر ذا الغنى ما أدوم نصبه، وأقلّ راحته، وأخسّ من ماله حظّه، وأشدّ من الأيام حذره، وأغرى الدّهر بثلمه ونقضه، ثمّ هو بين سلطان يرعاه، وحقوق تسترثيه، وأكفاء يتنافسونه، وولد يودّون فراقه، قد بعث عليه الغنى من سلطانه العناء، ومن أكفائه الحسد، ومن أعدائه البغي، ومن ذوي الحقوق الذمّ،

ومن الولد الملامة، لا كذي البلغة قنع فدام له السرور، ورفض الدنيا فسلم له الجسد، ورضي بالكفاف فتتكّبته الحقوق. (١)

تحمل العبارات السابقة رؤية لحال الغني، إذ الغني في نصب دائم، وبينه وبين الراحة بُعد ما بين المشرقين، ويخشى من الأيام، ثم إنه ما بين سعي دائم لاسترضاء السلطان، أو حقوق لابد من الوفاء بها، أو أكفاء ينافسونه، أو ولد يرغبون فراقه حتى يستأثروا بماله، ويستلزم ذلك من الغني أن يصيبه العناء، أو الحسد، أو أن يُبغَى عليه، أو الملامة، ثم تحمل العبارات السابقة الوجه الآخر لمن ليس له مال، حيث يكتفي بما يتبلغ به، كما أن رفض الدنيا يُسْلم الجسد، والعيش بالقليل يبعده عن تعدد الحقوق.

وقد استهل المتكلمون عبارتهم عن صورة الغنى بالاستفهام الذي يحمل معنى التقرير، وكأنهم يريدون من المتلقي معايشة ما يقولونه، فكلامهم منصب على مجموعة من التجارب الاجتماعية الحياتية المعاشة، ثم يأتي الفعل "ترى" بصيغة المضارعة ليشي بالتجدد والاستمرار، وليحمل بين حناياه معنيين، الأول: يتعلق بمعنى الفعل وهو الرؤية البصرية للدلالة على المعاينة الكاملة الكاشفة، والآخر: يتعلق بما يحمله الفعل المضارع من دلالة.

ولو دققنا النظر فيما قاله بعض المتكلمين عن ذم الغنى لوجدناه صحيحًا، غير أن صحته يتلقاها وجه واحد، إذ لو أدى الغني ما عليه من حقوق وواجبات ما لاقى كل المصاعب التي طرحها المتكلمون، بل سيجد الراحة وهدوء النفس والطمأنينة، فما الضرر اللاحق للغني من أداء ما عليه حق. ثم إنهم طرحوا كلامهم على التعميم، ولا يخفى ما يحمله التعميم من عدم الدقة في الحكم،

١ – لم أعثر على النص السابق إلا في كتاب عيون الأخبار، ١/ ٢٤٨.

وبخاصة أنه متعلق بتجارب اجتماعية قد تتفاوت في ما بينها باختلاف أصحابها.

ومما قال عمر بن الخطاب واصفًا حال الداخل على الأغنياء: من دخل على الأغنياء خرج وهو ساخط على الله[١]. تأتي عبارة سيدنا عمر بن الخطاب حاملة رسالة لكل فقير ليس راضيًا بقدر الله لإبراز ردة فعل الفقير الذي جالس الغني مدة ثم خرج من عند واجدًا على حاله، إذ يكتنف حديث الأغنياء في جل أوقاته الكلام عن المال وكسب المال، ويقل فيه ذكر الله في الغلب الأعم؛ ومن ثم يخرج الفقير مغمومًا مهمومًا على حاله، وكأنه يعاتب الله على فقره.

العنصر الثالث: ذم الغنى ومدح الفقر

رسم أكثم بن صيفيّ رؤية أخرى للغنى والفقر، حيث قال: "ما يسرّني أني مكفيّ كلّ أمر الدنيا. قيل: وإن أسمنتَ وألبنتَ؟ قال: نعم، أكره عادة العجز".[٢] إذ يتبدى من كلامه حب العمل والسعي، وأن يكسب المرء من سعيه، حيث بدأ عبارته بالفعل المضارع المنفي راسمًا من خلاله حالته المزاجية ما لو كُفي كل أمر الدنيا، وذلك أمر يسوؤه، ثم يختتم كلامه معللًا مذهبه في ذلك، حيث يكره العجز.

ويختتم ابن قتيبة ما ساقه من كلام منثور في أول الباب حول الغنى والفقر بعبارة غير منسوبة لصاحبها، راصدًا فيها عيب الغنى وفضل الفقر، ذم الغنى ومدح الفقر وهي: "كان يقال: عيب الغنى أنه يورث البله، وفضيلة الفقر أنه يورث الفكرة".(٣) ولعل أول مزية للعبارة السابقة، هي التصريح بكلمة "عيب" التي وصف بها الغنى، وكلمة " فضيلة" التي سحبها صفة للفقر، وقد اتكأ في تقوية

١ – لم أعثر على هذه العبارة إلا في كتاب عيون الاخبار، ١/ ٢٤٧.

٢ – لم أعثر على كلام أكثم بن صيفي إلا في كتاب عيون الأخبار، ١/ ٢٤٦.

٣ – لم أعثر على هذا النص إلا في كتاب عيون الأخبار، ١/ ٢٤٦.

حجته حين جعل الغنى معيبًا من كونه يورث البله، على أن الفقر ليس كذلك بل يورث الفكرة، وإخال أن مرجع الأمر لا يعود إلى الغنى والفقر لذاتهما، وإنما مرد ذلك إلى أن من مستتبعات الغنى توافر الحاجات؛ مما يعنى استغناء صاحبه عن التفكير في ما ليس عنده، وأما الفقر فمن توابعه تفكير من اتصف به بالفكر وانشغال البال في تحصيل ما ليس عنده، ومن ثم فمناط المفاضلة مرجعه إلى عقل لا يعمل وعقل يعمل، وليس بين الغنى والفقر مما يعني أن ابن قتيبة ألبس الغنى والفقر ما ليس لهما. وقد يُحمل الكلام على وجه آخر يتبدى في أن الغنى يصاب صاحبه بالبله من كثرة الطعام، وأما الفقير فميراثه الفكرة لخلو معدته التي هي بيت الداء، والمعنى على هذا الوجه لا يتوافق مع منهج القرآن الذي رسمه حول الطعام والشراب، قال تعالى: "وكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا" [١]

ومن ذمِ الغنى وجعلِ المال سببًا للهموم، ما قيل لابن عمر: "توفّي زيد بن حارثة وترك مائة ألف درهم، قال: لكنها لا تتركه".[٢] وتشي العبارة السابقة من ابن عمر في حق مال زيد بن حارثة –رضي الله عنهم جميعًا– ملمحًا يتمثل في أن كثرة المال المتروك مدعاة لأن يُسأل صاحبه عنه عند الله، فصاحب المال الذي مات وترك ماله لوارثه يتنعم فيه الوارث، في حين يسأل الله كاسب المال، من أين اكتسبه؟ وفيما أنفقه؟ ولعل الرواية السابقة لا تذم الغنى وتمدح الفقر بقدر ما تحث الواحد منا على تحري مصدر المال، والاهتمام باكتسابه من حلال، ثم تأدية حق الله فيه، فالغني الذي كسب ماله من حلال، وأدى حقه أجره أكبر وأعظم عند الله، من الفقير الذي لا مال له، إذ اليد العليا خير من اليد السفلى.

١ – سورة الأعراف آية رقم"٣١".

٢ – عيون الأخبار، ١/ ٢٤٦.

ولو تمعنا النظر في العبارات الثلاثة السابقة، لوجدنا أنها تدور إما مع حالة لا ينتفع صاحب المال بالمال كما في الحالة الأولى والثالثة، مع ما تحمله الحالة الثالثة من المساءلة عن المال، وفي الثانية مع مال مكسوب من غير حل، إلا أن تحديد الوجوه السابقة لا ينفي الوجوه الأخرى النافعة للمال، فلو حمل الواحد منا ماله واستطاع الانتفاع به إذن فلا ضير في ذلك، كذلك لو كسبه من حلال وأودى حقه، بل ويمتد انتفاع صاحب المال به حال كانت له صدقات جارية.

الخاتمة

وبعد تلك التطوافة مع ما انتخبه ابن قتيبة من الشعر والنثر الدائر حول الغنى والفقر، لبيان نظرتهم في تلك القضية، يمكن القول:

- تنوعت رؤى الشعراء إلى الغنى والفقر، ما بين مادح وقادح، وما بين من اتسمت نظرته بالحكمة في تناوله قضية الغنى، على أن هناك من أسس رأيه من خلال بعض التجارب الاجتماعية.
- اتكأ الشعراء على عنصر الحجاج في نظرتهم، حاملين في شعرهم أهمية الحجة لإقناع المتلقي بما يرونه.
- تعددت نظرات الشعراء والأدباء للغنى ؛ وعلى الرغم من ذلك لم نجد منهم من يتحدث عن أنواع المال، حيث عمدوا جميعًا إلى تناول المال المجرد وكأني بهم معنيون بالحديث عن الغنى وإبراز ما يعتور نفس الغني من انفعالات تجاه المال، أو ما يحدثه المال من تغير في نظرات الناس إلى الغني.
- اتسمت النماذج التي تخيرها ابن قتيبة لإبراز صورة الغنى والفقر بالتنوع بين الشعر والنثر، كما لم تخل كذلك من إبراز بعض التجارب الاجتماعية الناتجة من كثرة أحاديث الناس عن الأغنياء وأحوالهم، والفقراء وأحوالهم.
- تباينت رؤى الشعراء والأدباء في الغنى، فمنهم من جعله سببًا في السيادة، ومنهم من رامه طريق السعادة، ومنهم رآه سببًا في دفع أي منقصة قد تلحق صاحبها، ومنهم من أرجع استماع الناس إليه بسب المال، وهناك من جعل الغنى والفقر مما قسمه الله بين عباده فلا حيلة للغني في غناه ولا للفقير في فقره، ولكن أحاظٍ قسّمت وجدود.
- جنح الشعراء إلى الاعتماد على الحجة وبخاصة في الشعر الذي يمتدح الفقر حيث مال أصحابه إلى الحجة في تعضيد رؤيتهم، وكأني بهم يحاولون تمهيد الطريق للمتلقي والأخذ بيده لإقناعه بذلك، ومن ذلك حديثهم عن مدح

الفقر واحتياج النفس معه إلى الصبر، والله – عز وجل– أثنى على الصبر، ومن ثم فالفقير في كنف الله لأنه من الصابرين. وتبرز توصيات الدراسة في ديمومة النظر في تراثنا فما زال ثرًا واسع العطاء فهو معين لا ينضب، ولا يخفى أهمية النظرات الثواني في الكشف عن درر تراثنا.

فهرس المصادر والمراجع

- آثار البلاد وأخبار العباد لزكريا بن محمد بن محمود القزويني (المتوفى: ٦٨٢هـ)، نشر: دار صادر – بيروت.
- إحياء علوم الدين لأبي حامد محمد بن محمد الغزالي الطوسي (المتوفى: ٥٠٥هـ)، نشر: دار المعرفة – بيروت.
- أدب الدنيا والدين لأبي الحسن علي بن محمد بن محمد بن حبيب البصري البغدادي، الشهير بالماوردي (المتوفى: ٤٥٠هـ)، نشر: دار مكتبة الحياة ١٩٨٦م.
- إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري، لأحمد بن محمد بن أبى بكر بن عبد الملك القسطلاني القتيبي المصري، أبو العباس، شهاب الدين (المتوفى: ٩٢٣هـ)، نشر: المطبعة الكبرى الأميرية، مصر، الطبعة: السابعة، ١٣٢٣ هـ.
- الأضداد لأبي بكر، محمد بن القاسم بن محمد بن بشار بن الحسن بن بيان بن سماعة بن فَروة بن قَطَن بن دعامة الأنباري (المتوفى: ٣٢٨هـ)، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، نشر: المكتبة العصرية، بيروت – لبنان، ١٤٠٧ هـ – ١٩٨٧ م.
- الأمالي لعبد الرحمن بن إسحاق البغدادي النهاوندي الزجاجي، أبو القاسم (المتوفى: ٣٣٧هـ)، تحقيق: عبد السلام هارون، نشر: دار الجيل بيروت/ الطبعة: الثانية، ١٤٠٧ هـ – ١٩٨٧ م.
- الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لأبي يعلى محمد بن الحسين بن محمد بن خلف الفراء الحنبلي، تحقيق: محمد الأمين مصطفى أبوه الشنقيطي، أستاذ مساعد بكلية الشريعة بالجامعة الإسلامية، نشر: مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة – المملكة العربية السعودية، الطبعة: (بدون).
- البخلاء، لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، تحقيق: أحمد العوامري بك – علي الجارم بك، نشر: دار الكتب العلمية لبنان / بيروت – ١٤٢٢هـ.

• تاج العروس من جواهر القاموس، لمحمّد بن محمّد بن عبد الرزّاق الحسيني، الملقّب بمرتضى الزَّبيدي (المتوفى: ١٢٠٥هـ)، نشر: دار الفكر – بيروت، الطبعة: الأولى /١٤١٤ هـ.
• تاريخ دمشق، لأبي القاسم علي بن الحسن بن هبة الله المعروف بابن عساكر (المتوفى: ٥٧١هـ)، تحقيق: عمرو بن غرامة العمروي، نشر: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ١٤١٥ هـ – ١٩٩٥ م.
• التذكرة الحمدونية، المؤلف: محمد بن الحسن بن محمد بن علي بن حمدون، أبو المعالي، بهاء الدين البغدادي (المتوفى: ٥٦٢هـ)، الناشر: دار صادر، بيروت الطبعة: الأولى، ١٤١٧ هـ.
• تعليق من أمالي ابن دريد، لأبي بكر محمد بن الحسن بن دريد الأزدي (المتوفى: ٣٢١هـ)، تحقيق: السيد مصطفى السنوسي، مدرس اللغة العربية بجامعة الكويت، نشر: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب بالكويت – قسم التراث العربي، الطبعة: الأولى، ١٤٠١ هـ – ١٩٨٤ م.
• التمثيل والمحاضرة، لعبد الملك بن محمد بن إسماعيل أبو منصور الثعالبي (المتوفى: ٤٢٩هـ)، تحقيق: عبد الفتاح محمد الحلو، نشر: الدار العربية للكتاب، الطبعة: الثانية، ١٤٠١ هـ – ١٩٨١م.
• تهذيب اللغة للأزهري. لمحمد بن أحمد بن الأزهري الهروي، أبو منصور (المتوفى: ٣٧٠هـ) تحقيق: محمد عوض مرعب، نشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت، الطبعة: الأولى، ٢٠٠١م.
• ثمار القلوب في المضاف والمنسوب، لعبد الملك بن محمد بن إسماعيل أبو منصور الثعالبي (المتوفى: ٤٢٩هـ)، نشر: دار المعارف – القاهرة.
• الحيوان، أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، ١٥٩هـ/ ٢٥٥هـ، تحقيق عبد السلام محمد هارون، الناشر دار الجيل، سنة النشر ١٤١٦هـ – ١٩٩٦م، مكان النشر لبنان/ بيروت.

• خاص الخاص لعبد الملك بن محمد بن إسماعيل أبو منصور الثعالبي (المتوفى: ٤٢٩هـ)، تحقيق: حسن الأمين، نشر: دار مكتبة الحياة – بيروت/لبنان.
• الدر الفريد وبيت القصيد لمحمد بن أيدمر المستعصمي (٦٣٩ هـ – ٧١٠ هـ) تحقيق: الدكتور كامل سلمان الجبوري، نشر: دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، الطبعة: الأولى، ١٤٣٦ هـ – ٢٠١٥م.
• خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب، لعبد القادر بن عمر البغدادي (المتوفى: ١٠٩٣هـ)، تحقيق وشرح: عبد السلام محمد هارون، نشر: مكتبة الخانجي، القاهرة، الطبعة: الرابعة، ١٤١٨هـ– ١٩٩٧م.
• دلائل الإعجاز، المؤلف: أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الفارسي الأصل، الجرجاني الدار (المتوفى: ٤٧١هـ)، المحقق: محمود محمد شاكر أبو فهر، الناشر: مطبعة المدني بالقاهرة – دار المدني بجدة، الطبعة: الثالثة ١٤١٣هـ – ١٩٩٢م.
• ديوان المعاني، لأبي هلال الحسن بن عبد الله بن سهل بن سعيد بن يحيى بن مهران العسكري (المتوفى: نحو ٣٩٥هـ)، نشر: دار الجيل – بيروت.
• ديوان أمير المؤمنين الإمام علي – رضي الله عنه، وكرم الله وجهه–، جمع وترتيب عبدالعزيز الكرم، طبعة مصححة ومنقحة على الرواية الصحيحة، الطبعة الأولى ١٤٠٩ هـ – ١٩٨٨ م.
• ديوان الهذليين، ترتيب وتعليق: محمّد محمود الشنقيطي، نشر: الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة – جمهورية مصر العربية، ١٣٨٥ هـ – ١٩٦٥ م.
• ربيع الأبرار ونصوص الأخيار، لجار الله الزمخشري توفي ٥٨٣ هـ، الناشر: مؤسسة الأعلمي، بيروت الطبعة: الأولى، ١٤١٢ هـ.
• الرّوض الباسم في تراجم شيوخ الحاكم، لأبي الطيب نايف بن صلاح بن علي المنصوري، قدم له: فضيلة الشيخ الأستاذ الدكتور سعد بن عبد الله الحميد،

وفضيلة الشيخ الدكتور حسن محمد مقبولي الأهدل، وقدم له وراجعه ولخص أحكامه: فضيلة الشيخ أبو الحسن مصطفى بن إسماعيل السليماني، نشر: دار العاصمة للنشر والتوزيع، الرياض – المملكة العربية السعودية، الطبعة: الأولى، ١٤٣٢ هـ – ٢٠١١ م.

• الزهرة لابي بكر محمد بن داود الأصبهاني، حققه وقدم له وعلق عليه د/ إبراهيم السامرائي، مكتبة المنار الأردن، الطبعة الثانية، ١٤٠٦، ١٩٨٥م.

• سير أعلام النبلاء، لشمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قَايْماز الذهبي (المتوفى : ٧٤٨هـ)، تحقيق: مجموعة من المحققين بإشراف الشيخ شعيب الأرناؤوط، نشر: مؤسسة الرسالة، الطبعة: الثالثة ، ١٤٠٥ هـ / ١٩٨٥م.

• شرح ديوان الحماسة (ديوان الحماسة: اختاره أبو تمام حبيب بن أوس ت ٢٣١ هـ) المؤلف: يحيى بن علي بن محمد الشيبانيّ التبريزي، أبو زكريا (المتوفى: ٥٠٢هـ)، الناشر: دار القلم – بيروت.

• شرح ديوان المتنبي لأبي البقاء عبد الله بن الحسين بن عبد الله العكبري البغدادي محب الدين (المتوفى: ٦١٦هـ) تحقيق: مصطفى السقا/إبراهيم الإبياري/عبد الحفيظ شلبي، نشر: دار المعرفة – بيروت.

• شرح صحيح البخاري، لابن بطال أبي الحسن علي بن خلف بن عبد الملك (المتوفى: ٤٤٩هـ)، تحقيق: أبو تميم ياسر بن إبراهيم، نشر: مكتبة الرشد – السعودية، الرياض، الطبعة: الثانية، ١٤٢٣هـ – ٢٠٠٣م.

• شرح ديوان الحماسة، لأبي على أحمد بن محمد بن الحسن المرزوقي الأصفهاني (المتوفى: ٤٢١ هـ)

تحقيق: غريد الشيخ، وضع فهارسه العامة: إبراهيم شمس الدين، نشر: دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان الطبعة: الأولى، ١٤٢٤ هـ – ٢٠٠٣ م.

• شرح كتاب الحماسة للفارسي (مطبوع مع: شروح حماسة أبي تمام دراسة موازنة في مناهجها وتطبيقها) لأبي القاسم زيد بن علي الفارسيّ (المتوفى: ٤٦٧ هـ)، تحقيق: د. محمد عثمان علي، نشر: دار الأوزاعي – بيروت، الطبعة: الأولى.
• صبح الأعشى في صناعة الإنشاء لأحمد بن علي بن أحمد الفزاري القلقشندي ثم القاهري (المتوفى: ٨٢١هـ)، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت.
• طبقات الشعراء، لعبد الله بن محمد ابن المعتز العباسي (المتوفى: ٢٩٦هـ)، تحقيق: عبد الستار أحمد فراج، الطبعة: الثالثة، نشر: دار المعارف – القاهرة.
• العقد الفريد لأبي عمر، شهاب الدين أحمد بن محمد بن عبد ربه ابن حبيب ابن حدير بن سالم المعروف بابن عبد ربه الأندلسي (المتوفى: ٣٢٨هـ)، نشر: دار الكتب العلمية – بيروت الطبعة: الأولى، ١٤٠٤ هـ.
• عيون الأخبار، قدم هذه الطبعة د. عبدالحكيم راضي، ط: الهيئة العامة لقصور الثقافة، ٢٠٠٣.
• فتح الباري شرح صحيح البخاري، لزين الدين عبد الرحمن بن أحمد بن رجب بن الحسن، السَلامي، البغدادي، ثم الدمشقي، الحنبلي (المتوفى: ٧٩٥هـ) تحقيق: محمود بن شعبان بن عبد المقصود، وآخرون، نشر: مكتبة الغرباء الأثرية – المدينة النبوية. مكتب تحقيق دار الحرمين – القاهرة الطبعة: الأولى، ١٤١٧ هـ – ١٩٩٦ م.
• فصل الخطاب في شرح (مسائل الجاهلية، التي خالف فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم أهل الجاهلية لمحمد بن عبد الوهاب رحمه الله) المؤلف: محمود شكري بن عبد الله بن محمد بن أبي الثناء الألوسي (المتوفى: ١٣٤٢هـ) تقديم وتعليق: علي بن مصطفى مخلوف، الطبعة: الأولى، ١٤٢٢هـ.

- اللطائف والظرائف لعبد الملك بن محمد بن إسماعيل أبو منصور الثعالبي (المتوفى: ٤٢٩هـ)، نشر: دار المناهل.
- لسان العرب، لمحمد بن مكرم بن على، أبو الفضل، جمال الدين ابن منظور الأنصاري الرويفعي الإفريقي (المتوفى: ٧١١هـ)، نشر: دار صادر – بيروت، الطبعة: الثالثة – ١٤١٤ هـ.
- لسان الميزان المؤلف: أبو الفضل أحمد ابن علي بن محمد بن أحمد بن حجر العسقلاني (المتوفى: ٨٥٢هـ)، المحقق: عبد الفتاح أبو غدة، الناشر: دار البشائر الإسلامية، الطبعة: الأولى، ٢٠٠٢ م.
- المجالسة وجواهر العلم لأبي بكر أحمد بن مروان الدينوري المالكي (المتوفى : ٣٣٣هـ)، تحقيق: أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان، نشر: جمعية التربية الإسلامية (البحرين – أم الحصم)، دار ابن حزم (بيروت – لبنان) ١٤١٩هـ.
- المجتنى، لأبي بكر محمد بن الحسن بن دريد الأزدي (المتوفى: ٣٢١هـ)، نشر: دائرة المعارف العثمانية.
- المحكم والمحيط الأعظم، لأبي الحسن علي بن إسماعيل بن سيده المرسي (ت: ٤٥٨هـ)، تحقيق: عبد الحميد هنداوي، نشر: دار الكتب العلمية – بيروت الطبعة: الأولى، ١٤٢١ هـ – ٢٠٠٠م.
- مرآة الزمان في تواريخ الأعيان، لشمس الدين أبو المظفر يوسف بن قِزْأُوغلي بن عبد الله المعروف بـ «سبط ابن الجوزي» (٥٨١ – ٦٥٤ هـ) تحقيق وتعليق: [يأول كل جزء تفصيل أسماء محققيه] محمد بركات، كامل محمد الخراط، عمار ريحاوي، محمد رضوان عرقسوسي، أنور طالب، فادي المغربي، رضوان مامو، محمد معتز كريم الدين، زاهر إسحاق، محمد أنس الخن، إبراهيم الزيبق، نشر: دار الرسالة العالمية، دمشق – سوريا، الطبعة: الأولى، ١٤٣٤ هـ – ٢٠١٣ م.
- معجم البلدان شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومي الحموي (المتوفى: ٦٢٦هـ)، الناشر: دار صادر، بيروت الطبعة: الثانية، ١٩٩٥ م.

• معجم الشعراء للإمام أبي عبيد الله محمد بن عمران المرزباني (المتوفى : ٣٨٤ هـ) بتصحيح وتعليق: الأستاذ الدكتور: كرنكو، نشر: مكتبة القدسي، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان الطبعة: الثانية، ١٤٠٢ هـ – ١٩٨٢ م.
• المستطرف في كل فن مستطرف، لشهاب الدين محمد بن أحمد بن منصور الأبشيهي أبو الفتح (المتوفى: ٨٥٢هـ)، نشر: عالم الكتب – بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١٩ هـ.
• نشوة الطرب في تاريخ جاهلية العرب، لابن سعيد الأندلسي، تحقيق: الدكتور نصرت عبد الرحمن، نشر: مكتبة الأقصى، عمان – الأردن.
• النوادر في اللغة، لأبي زيد الأنصاري تحقيق ودراسة: الدكتور/ محمد عبد القادر أحمد، نشر: دار الشروق، الطبعة: الأولى، ١٤٠١ هـ – ١٩٨١ م.
• الوَحشيَّات وهوَ الحمَاسَة الصُّغرى، لحبيب بن أوس بن الحارث الطائي، أبو تمام: الشاعر، الأديب (المتوفى: ٢٣١هـ)، علق عليه وحققه: عبد العزيز الميمني الراجكوتي، وزاد في حواشيه: محمود محمد شاكر، نشر: دار المعارف، القاهرة الطبعة: الثالثة.
• يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر، لعبد الملك بن محمد بن إسماعيل أبو منصور الثعالبي (المتوفى: ٤٢٩هـ)، تحقيق: د. مفيد محمد قمحية، نشر: دار الكتب العلمية – بيروت/لبنان، الطبعة: الأولى، ١٤٠٣هـ١٩٨٣م.

ثانيًا: المجلات والدوريات:

• صورة القلم في كتاب العقد الفريد لابن عبد ربه دراسة نقدية، عصام حمدي ضيف، مجلة كلية اللغة العربية جامعة الأزهر فرع بالمنوفية ٢٠٢١م.

ثالثًا: الرسائل العلمية:

• ظاهرتا الغنى والفقر في الشعر إلى نهاية الخلافة الراشدة دراسة أدبية نقدية" للباحث أمين زين الدين محمد الشريف، كلية اللغة العربية بالمنوفية عام ٢٠١٣م.

فهرس الموضوعات

مسلسل	الموضوع	رقم الصفحة
١	الملخص باللغة العربية	٦٨١
٢	الملخص باللغة الإنجليزية	٦٨٣
٣	المقدمة	٦٨٥
٤	التمهيد	٦٨٩
٥	المبحث الأول: الشعر - العنصر الأول: الحكم - العنصر الثاني: تجاب اجتماعية - العنصر الثالث: الموازنة بين الغنى والفقر - العنصر الرابع: ذم الغنى ومدح الفقر - العنصر الخامس: مدح الغنى - العنصر السادس: ذم الفقر - العنصر السابع: فلسفة المال وعدمه	٦٩٧
٦	المبحث الثاني: النثر - العنصر الأول: الحكم - العنصر الثاني: تجارب اجتماعية - العنصر الثالث: ذم الغنى ومدح الفقر	٧٢٦
٧	الخاتمة:	٧٣٤
٨	فهرس المصادر والمراجع	٧٣٦
٩	فهرس الموضوعات	٧٤٣